عُمَر فاخُوري

لا هوادة

منشورات الأديب

لا هوادة

للمؤلف

الباب المرصود

الفصول الاربعة

آراء اناتول فرانس (عن الفرنسية)

آراء غربية في مسائل شرقية (عن الفرنسية)

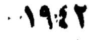
مهاتما غاندي (عن رومان رولان)

◆

عُمَر فاخُوري



منشورات الاديب





مطابع دار الأحد ـــ بيروت

◆

ان يكن في ظهرانينا ، بعد خبرة عامين ونصف من هذه الحرب الكونية العظمى التي لم يسبق لها في التاريخ مثيل ، لا من حيث تعدد اسبابها ونتائجها ، ولا من حيث اشتباك عناصرها ومقوماتها ، ولا من حيث التطورات السريعة والمفاجئة التي تجتازها .. ان يكن في ظهرانينا بعد ذلك كله ، نفر من ابناء البلاد ما زالوا نائمين على الثقة ، غير مسلمين بخطر الآفة النازية في مختلف وجوهها – بل أقنعتها – ويحاولون التمويه على انفسهم او بعضهم على بعض ، بان ذلك الخطر ، على احتمال وجوده ، لا شأن له بنا ولا شأن لنا به ، فهذا النفر إما عمي وإما متعامون . على اننا نؤثر لهم الاولى ، فليس الا التعامي شرّ من العمى .

ونحمد الله على ان هذا النفر آخذ في القلة ، بفضل الشباب المثقف العامل ، في الاقطار العربية كافة .

الشباب البصير الواعي وعياً قومياً صحيحاً مادياً اذا امكن القول . لا يؤخذ بالترهات والاباطيل ، ولا بالالفاظ مهما بلغ من طنينها في الاسماع . ليس من المشتغلين في السياسة

مهنة او تكسباً ، ولا تظرفاً او تزيداً ، بل ببساطة — طواعية و « حياتياً » اذا صح التعبير .

الشباب الديمقراطي الذي لا يسعه الا ان يكون ديمقراطياً : الديمقراطي وجوباً ، لانه لا يفكر ولا يعمل الا للسواد الاعظم من بني وطنه ، أي بكلمة واحدة : لوطنه .

ليس العمي منهم ولا المتعامون . لقد علموا ان هذا العالم الذي تؤلف بلادنا جزءاً منه ، متصلاً غير منفصل ولا منعزل ، يتمخض بنظام جديد ، يضمن به لنفسه استقراراً اقتصادياً اجتماعياً قومياً لا بد للعالم في تطوره الاخير ، عنه ، وان هذا الاستقرار الاجتماعي الاقتصادي القومي هو مشكلة المشاكل وغاية الغايات ، وانه كذلك بالنسبة الينا نحن ايضاً ، وبالدرجة الاولى .

لهذا ولهذا وحده ، وقف شبابنا في جبهة الديمقراطية عاملاً مجاهداً مناضلاً ، بما يملك من وسائل وبما لا يكاد يملك ، غير متربص ولا مهادن ، اذ كل تربص او مهادنة ضرب من الهزيمة .

●

قليل من السياسة

يقولون لي : ما لك وللسياسة ؟ عافاك الله .

وانا اجيبهم : كيف ولماذا ؟ غفر الله لكم .

واقسم ليس في هؤلاء الناصحين الصادقين المخلصين الذين يسولون لي ترك السياسة ، من لا يشتغل في السياسة . يشتغل فيها جهده . يشتغل فيها قدر المستطاع . في الدائرة التي تتاح له .. على الطريقة التي لا يملك طريقة سواها .. لكنه يشتغل في السياسة ، قياماً وقعوداً ، وفي الغدو والآصال .

واعجب ما في القضية اني لم اجد بين هؤلاء الرفاق ، من هو على رأيي او مذهبي السياسي ، لاعزي نفسي ، موهماً اياها ان النصيحة خالصة لوجه الله .

لن نحدثكم طويلاً عن هؤلاء النفر من الناس ، لا سيا وفي هـذا الحديث حديث عنا : من نكون نحن جميعاً ، وامثالنا كثير ، بازاء الاحداث الجسام التي يشهدها الكون منذ عامين ونيف ، بل منذ بضعة اعوام ، بل منذ قرون واجيال ؟

لكن ليؤذن لنا ، في هذه المناسبة ، ان نروي نادرة طريفة

رغم انها قد بلغت من العمر عتياً ، الف عام على الاقل . هي نكتة قهقه بها الجاحظ في دار السلام ، فما زال لتلك الضحكة الطلقة صدى يرن في عصرنا العشرين .

روى الجاحظ انه رأى بصرياً يخاصم كوفياً في العنب الرازقي والعنب البغدادي — لو كانت الواقعة عندنا لقلنا : العنب الزحلي والعنب البحمدوني — ايهما اكرم ثمراً ، واطيب نكهة ، والذ طعماً . فتنازعا (اي البصري والكوفي) ثم تواثبا . ففقأ الكوفي عين البصري ، وخلع البصري كتف الكوفي . ثم رآهما بعد ذلك ، ويا للعجب ! متصافيين متوادين ، كأن لم تفقأ عين احدهما ولم تخلع كتف الآخر .

ولعل ذلك الفريق من الناصحين المشفقين يريدنا على ان لا نعتبر هذا الخلاف الناشب بين الديمقراطيات والحكومات الدكتاتورية في العالم ، اجل شأناً واعظم خطراً من خلاف بين بصري وكوفي ، على العنب الرازقي والبغدادي — كدت اقول : البحمدوني والزحلي . فاذا رأينا الروسي مثلاً يفقأ عين الالماني ، او الاميركي يخلع كتف الياباني — وهو ما ندعو له بكل جوارحنا — فليست المسألة تتجاوز عندهم حد المفاضلة بين نوعين اثنين من العنب .

ما كنا لنزدري شأن العنب الجيد ، او لننكر فضله . كيف ، ونحن في لبنان ؟ لكن يجب ان نحلق عالياً ، حيث تعيش الآلهة ، متلفعين بحلة من اللامبالاة لم تفصل على اجسامنا ، كي نقيس كل شيء في حياتنا الدنيا ، بمقياس

العنب الجيد او الزبيب الفاخر ، فنعتقد ان لا شيء جدير بان يخلع احدنا من اجله كتف الاخر ، او يفقأ عينه .

مـا العمل ، ونحن اناس للحق والعدل والحرية قيمـة عندهم ، ترجح كفتها في ميزان ليس اقل دقة من هذا الميزان الذي توزن به الطيبات من الفاكهة وغيرها ، فلا اقل من ان نؤيد ، بالقلب واللسان ، اولئك الذين يتصرون للحق والعدل والحرية في العالم ، وهم عرضة — اقل ما يكون — لان تفقأ عين احدهم ، او تخلع كتف الآخر ؟

مـا العمل اذا كان لنـا رأي في كيف يجب ان تساس الافراد والجماعات ، وكان لنا نظر في المبادىء التي ينبغي ان توطد ، وفقاً لها ، علاقات بعضهم ببعض ، فنحن لا نجد بداً من تحبيذ ذلك الاسلوب في الحكم ، ومن الانتصـار لتلك المبادىء في السياسة ؟ ما العمل اذا كان ثمة ، مثل اعلى لحياة الافراد والجماعات ، ينعمون كلما قطعوا شوطـاً نحو تحقيقه ، باكثر ما يمكن من الخير والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانـا هذا المثل الاعلى ، وشغف قلوبنا ، فنحن راضون ان نترسم خطى القافلة المباركة ، المهدية الهادية ، التي تقود البشرية الى ذلك الهدف الاسمى ، منذ فجر التاريخ ، قافلة الرسل والحكماء والمصلحين ؟

ما العمل اذا كنا — ولله الحمد — قـد اجتزنا من ادوار العمر ، ذلـك الدور الذي يهتفون فيه للقتـلة واللصوص في الافلام السينماوية ، فاولى بنا نحن ان لا نحيي الجريمة المتلبسة



بلباس القوة وهي توشك ان تبسط يدها الآثمة الينا ، لتقضي على حرياتنا ، ولتفجعنا بكل ما هو اثير لدينا ، عزيز عندنا ، او على الاقل ، بما نرجوه من مستقبل لهذه البلاد التي لا رجاء لها الا في غلبة القوى الخيرة والمبادىء العادلة ؟ ما العمل اذا كنا نفضل الضحية المظلومة على مضحيها الظالم ، ونرفع المسروق ماله فوق قاطع الطريق درجات ؟ ..

.. نحن امة نعيش على دائرة ندور حولها ، مجترين ببضع عقائد ومصالح وقصائد .. وكأننا لا تحدثنا انفسنا بالخروج من هذه الدائرة المسحورة ، كي نساهم في الحركة العامة التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة . لقد بعد عهدنا ، على ما يظهر ، بالفكر الوثاب والحياة الحرة ، حتى امسينا كآلة قديمة الطراز ، صدئة الجهاز . فاذا كان هـذا الصدام المشهود الذي يتطاحن فيه كل ما بالعالم من قوة مادية ومعنوية ، غير قادر على ان يبعث فكرنا من مرقده ، وينشطنا الى الحياة والعمل ، فهو والله اليأس المطبق ، والفشل المتحقق .

ليس حسبنا ان نعيش ، كما نعيش . ينبغي ان نفكر كيف يصح ان نعيش . واكبر الظن ان هذه الحرب العظمى التي يغرق اليوم ، العالم باسره ، في حديدها ونارها ، انما مردها الى الخلاف في كيف يجب ان يعيش الافراد والامم ، كأن الوجود يتمخض بعالم جديد . لهذا ، لا من اجل العنب الرازقي او البغدادي ، نرى الروسي يفقأ عين الالماني ،

والاميركي يخلع كتف الياباني . واذن لا مناص لنا من ان نختار موقفاً نقفه من ذلك الصدام .

قلت : ان نختار .. والواقع انه ليس لنا الخيار .

ان ادنى الروية ، ونحن من الشعوب المستضعفة التي لا سلاح لها الا حقها في الحياة ، والا ايمانها بالمبادئ التي تشرف الانسان .. ان ادنى الروية يقذف بنا في الجبهة التي تجاهد في العالم لتحقيق نظـام هو حقاً جديد ، تتمتع فيـه الامم والافراد ، باكثر ما يمكن من العدل والكرامة والحرية ، فتتابع الانسانية سيرتها المثلى نحو اهدافها العليا ..

وانها لدعوة حارة الى الاشتغال في السياسة .. في هذه السياسة .

•

عـزلة الاديب

١

تالله ان شأن هذا «التاريخ» لعجيب .

لقد نقل التاريخ الينا كثيراً من الاسماء والاحداث وما زال هذا دأبه . لكن ما أغفله — عن عمد أو سهو ، لا ادري — هو ، ولا مراء ، اكثر جداً مما نقله . التاريخ اذن مصلحة بريد غير منتظم .. والمصيبة ان يوكل الى هذه المصلحة ايضاً اختيار ما يجوز حمله من الرسائل ، او يصح نقله من الاخبار .

كان لي جارة عجوز تجيئني ، آخر كل شهر ، بكتاب جديد من ابنها المهاجر ، كي اتلوه عليها .. ومن الالف الى الياء ، كما تقول . وكان ذلك الولد — البار بأمه الحنون لسوء حظي — مغرى بان يقص عليها بالتفصيل ، حوادث حياته اليومية جميعاً ، في بيته وتجارته وما بينها ، لا يدع شاردة ولا واردة ، ما يسؤ منها وما يسر ، ما يبعث القلق أو يفرغ الطمأنينة — بلهجة واحدة لا تتغير ، حتى اتهمته في سري بقوة المخيلة وجودة الاختراع . وكنت ، على الاغلب ، لا اقف عند

اخبار السوء ، بل اقفز عنها بلباقة نادرة المثال ، واقرأ طويلا بين السطور . فلم يك في ذلك خسران على احد منا ، وطالما ربحت الدعاء .

هكذا التاريخ ، على الاقل كما يشتهيه نفر من المؤرخين وجمهرة القارئين . واذا قلت : التاريخ ، فأنا أعني بالبداهة تلك المصنفات التي لا تحصى عدداً ، الموروثة عن كل الازمنة في الامم كافة ، والمختلفة شكلا وحجماً ، او طريقة واسلوبا ، او نهجاً وغاية . فالتاريخ يتألف بالدرجة الاولى من هذه المؤلفات جميعاً على السواء ، رغم اختلاف ظواهرها وبواطنها ، ومنازعها ومقاصدها ، ومبادئها وغاياتها . ولا بأس بأن يناقض بعضه بعضاً في بعض الاحيان : أليست الحياة نفسها شبكة مختلطة من المتناقضات ؟ بل أليس لكل شأن من الشؤون الانسانية وجوه متفرقة تبدو وتغيب ، فلا يحيط بها كلها في آن ، الا الذي وسع علمه كل شيء ؟

ذلك هو التاريخ ، بأحرف نورانية بارزة تلوح في غياهب الماضي ، كالأحرف التي تزين بها ليلا واجهات المخازن الكبرى ، يراها الرائي من بعيد ، وقد اخذت ترتسم حرفاً حرفا ، ثم تمحي حرفاً حرفا ، ثم اذا بها تعود دواليك . ولعلهم لهذا يقولون (أي الحكماء) ان التاريخ يعيد نفسه .

اجل .. لكن هذا التاريخ يتضمن كثيراً من السطور الدارسة والفصول الطامسة . كالمخطوطة القديمة اتت الارضة على صفحاتها ، أو كالحافظة الهرمة غشى النسيان على ذكرياتها .

بل ما لنا نبعد في التشبيه ونغرب في التمثيل؟ لنقل ، وهو الاصح ، ان التاريخ كتاب مدرسي مزين بالرسوم تعاورته ايدي الصبية العابثين ، اعواماً بالتصحيف والتحريف ، والتعديل والتبديل . فثمة لطخة حبر غير متعمدة ، او جرة قلم مقصودة ، قد غطت على اسم من الاسماء العظام ، وحدث من الاحداث الجسام ، فلا الحادث كان ، ولا المسمى وجد .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ، ولم يسمر بمكة سامر !

وثمة اوراق برمتها انتزعت من دفتي الكتاب عنوة ، ثم شردت ايدي سبا ، ثم مزقت شر ممزق ، فهو عصر بكامله يضيع ، أو أمة عن بكرة ابيها تفقد ذاتها .. والصور ، ما ادراك ما الصور؟ لهـذه حساب خاص : أية خسارة في ان يزاد عليها القليل ، بل اقل من القليل؟ هنا مثلاً شارب اعقف وهناك لحية جليلة .. من منا لم يعرف في صباه الماجن المرح ، اشباه هذا الكتاب؟ عندي انا في متحف الذكريات ، نسخة فريدة من تاريخ « صحيح » تثبت بما لا يحتمل شكاً ولا تأويلا ، انه بين بكرة وضحاها من ليلة غير مقمرة ، قد نبت لاحدى الملكات السعيدات لحية مستعارة وشارب مجلوب ، وكانت اعجوبة الاعاجيب . واخال ان هذه المعجزة ظهرت في ذلك الزمن ، على يد صبي نابغ شغف بفن التصوير منذ نعومة اظفاره . فاصبح اليوم والحمد لله ، حلاقاً من مهرة الحلاقين ، كأني به آثر هذه المهنة التي يقضى على صاحبها ، دون سائر

الخلق ، بالوقوف دوماً على رجليه ، تكفيراً عما اجترمه من تزييف في هيئات التاريخ ، اذ كان يخلع على ابطاله ، دون حساب ، لحى وشوارب ليست لهم ، كأنه يعدهم لحضور مرفع حافل في دنيا الخلود .

لو اخذنا بعض امهات كتب التاريخ التي دون فيها العرب اخبارهم واخبار سائر الامم ، ما علم منها وما لم يعلم ، لعثرنا في مواضع عدة على هذه العبارة الحكيمة : « هنا بياض في الاصل » . يعني بكلمة اوضح : هنا نقص في التاريخ ، كخلل في الحافظة يعتري الاشخاص فيفقدون ، بفعل المرض او الشيخوخة ، حلقة او حلقات من سلسلة ذكرياتهم .

ليس من غرضنا الآن ان نحتج على ابن الاثير مثلا ، فنأخذ عليه انه ، رغم البياض الذي ازدان به مؤلفه النفيس في التاريخ كرأس الاشيب ، قد سماه « الكامل » فالكمال لله وحده . لكن الامر الذي يدعو الى العجب هو ان يكثر ترداد هذه العبارة الغراء : « بياض في الاصل » كلما تقدم الزمن من عصر الكاتب ، كأن المؤرخين كانوا – والله اعلم – باخبار الخليقة والطوفان وما أشبه ، اعرف منهم باخبار الازمنة القريبة من زمانهم . بل لا عجب ، قد يكون هذا التاريخ مثل اولئك الاشخاص الذين وصفهم علم النفس بانهم كلما تقدموا في السن امسوا أشد تذكراً واستعادة لحوادث ماضيهم القصي ، ولا سيما عهد صباهم وشبيبتهم . ويذهب العلامة فرويد الى أبعد من هذا حينما ينوه بشتى التأثيرات التي تطبعها في

نفس المرء حوادث طفولته ، فتسيطر على حياته جميعاً ، سواء ما ظهر وما بطن ، او ما وعاه وما لم يع ، من تلك الذكريات العريقة . وعلى كل ، فان عبارة « بياض في الاصل » لمن العبارات التي يجب ان يغلب استعمالها او دسها كالتعاويذ ، حتى يصبح اكثر التاريخ بياضاً . ولكل قارىء حينذاك ان يقرأ بين السطور ما شاء ، كما هو شأني مع العجوز الطيبة التي تسألني ، آخر كل شهر ، ان اؤرخ لها سيرة ابنها البار في ديار الغربة .

قلنا : التاريخ ، وعنينا بالدرجة الاولى مصنفاته ، أي المادة « الخام » التي يمكن ان يتألف منها تاريخ كامل ، لو قدر لهذا « الكامل » وجود او شبه وجود . نحن لم نعن اذن ذلك الشيء الرمزي الذي كاد يتمثل التاريخ فيه ، يوم تجسد في نصف الٓه من آلهة يونان الاقدمين : زعموا انه كان لأبولون ، الٓه الموسيقى والشعر وسائر الفنون ، تسع صواحب يُدعين ربات الوحي . فكن يسرحن ويمرحن ويرقصن ويغنين حول الاله العظيم ، على هضاب البرناس وفي وديانه . واحدى تلك الكواعب الاتراب كليو ، ربة التاريخ .. قيل انها كانت لا تفتأ تشيد بامجاد الماضي وتتغنى بمآثر الابطال . لكن وجه التاريخ قد تبدل منذ ذلك العهد السعيد ، فبعد ان كان يرقص ويغني في الوديان والهضاب ، اصبح اليوم عابساً مقطب الجبين ، تكاد لا تعرف الابتسامة محياه ، قابعاً في زاوية مكتئبة ، وكأنه تقنع بقناع العلماء .

ستسألون الآن : « ما شأننا والتاريخ ؟ أهكذا يكون الكلام عن عزلة الاديب ، في مهرجان من الحقائق والاباطيل ، ومن الوقائع والاساطير ؟ ألم يك عن هذه المقدمة بدّ ؟ »

فانا اجيب : لا .. ذلك ان التاريخ الذي نقل الينا شتى الاسماء والاحداث ، ما كان وما لم يكن ، ما يهم وما لا يهم ، وهو تارة يرقص ويغني وتارة يعبس ويقطب ، قد اغفل فيما اغفله — عن عمد او سهو ، لا ادري — اسم اول اديب ، شاعر او ناثر ، عنّ لباله ذات يوم ان يعتزل . كان الاديب على اتصال حيّ يقظ مستمر ، بهؤلاء الخلق الذين يتحدث عنهم اليهم ، فاذا به ينفض كفه من تراب هذه الدنيا التي نضطرب فيها من ساعة مولدنا الى ساعة مماتنا ، ثم يبني لنفسه فوق السحاب ما يسميه الفرنجة « البرج العاجي » وهم يرمزون به عن عزلة الاديب بمعناها الشامل او المطلق .

لقد اخذنا نحن في ادبنا الحديث هذا الاسم : « البرج العاجي » على رجاء ان يكون لنا المسمى ايضا ، فيما بعد . وليست اول مرة يسمى فيها الطفل قبل مجيئه ، تفاؤلا . اما الكلام عن ذلك المخلوق العجيب ، حبيس البرج فوق السحاب ، فموعدنا به آت ، وكل آت قريب .

٢

عرفت في عهد الصبى ، اعني : في المدرسة ، معلماً طيباً كان يقضي اكثر عمره اما نائماً واما مهوماً ، اي انه كان يقنعه التهويم حين لا يظفر بالنوم .. كان يوكل اليه في بعض ايام الاسبوع ، مراقبة التلاميذ الصغار في قاعة المطالعة ، فيجلس الى الطاولة معتمداً رأسه باحدى يديه ، ثم يأخذ في القراءة . وكان على الاغلب يقرأ مغمض العينين في كتاب مفتوح ، لا يستيقظ الا لجرس الانصراف . فكانت تبدر منه حينذاك اشارة ضجر غير مصطنعة ، كأن الجرس قطع عليه في وقت معاً ، قراءته اللذيذة وحلمه الارغد . بيد ان تلك الاشارة لم تكن لتخدع الاولاد الخبثاء الذين عرفوا ، والحق يقال ، كيف يعتدلون في لهوهم وعبثهم ، مخافة ان يُسلبوا هذه العطية الغالية ، اذا جاوزوا الحد . وكأن بينهم وبين معلمهم منطقة حياد ضيقة جداً ، لكنها وسعت النوم الهنيء واللعب البريء ، فلا ينبغي لاحد الفريقين ان يخرق حرمتها ، او يفسد الشرط : ليس المعلم مثلا ان يغط غطيط الثور ، فكذلك ليس للتلاميذ ان ينهقوا كالحمير .. لقد حدث مرة ان قامت القيامة في الصف بغتة ، ولم يعرف كيف ولماذا . فاكتفى المعلم بان اغلق كتابه وفتح عينيه ، خلافاً للمعتاد . ثم استوى على كرسيه

كأنه يتأهب لسهد طويل . وقال مهدئاً بلطف انه ، بعد اليوم ، لن « يغض النظر » وحسبنا الله وهو نعم الوكيل ! قالها بلهجة حزن بليغ .. لن يغض النظر ! عبارة فيها كثير من التواضع واللين ، لكنها لم تخفف من هول تلك الساعة . وكان الصف ومعلمه شركاء في المصيبة .

هذا ما كان من امر معلمنا الطيب في قاعة الدرس . اما ما كان من امره في الملعب ، فذاك اعجب : كان الحمل الوديع يتزيا ، في حديقة المدرسة ، بجلد الذئب الذي « ينام باحدى مقلتيه » كما اخبرنا الشاعر . هل كانت الهوية تذكره جده الاول ، ربيب الغابات والكهوف في فجر التاريخ ، فهو لا يفتأ يعوي في وجه هذا ، ويكشر عن انيابه في وجه ذاك ، كسباع الافلام الهزلية ? لا ، ليس « جلد الذئب » هنا سوى استعارة شعرية بدا لنا ان نحلي بها حديثنا . والحق ان معلمنا الانيس لم يكن يستعير من ذلك الوحش الضاري غير مقلته اليقظى ، فيركبها في وجهه ، ضرورة ، كعين من زجاج .. وكان احياناً ، لا سيا بعد طعام الغداء ، اذا ائتمر به النعاس والتخمة ليصرعاه ، لم يقاوم طويلا ، بل ينصرع عن طيب نفس ، كأنه وجد عذراً لا يرد . ولا ازال اتمثله الآن ، وقد انتبذ ، ظهر يوم شديد الحر ، زاوية من زوايا الملعب ، على كرسي في ظل شجرة ، فنام ملء جفونه ، بينما الاولاد حوله يتعادون ويتنادون ، ليس يزعجه شيء كأنه وسط دائرة مسحورة لا يصل اليه فيها صوت من الاصوات ،



او حركة من الحركات .. في ذلك اليوم — ولا اعده من الايام السعيدة التي تذكر بالخير — اتيت معلمنا اذ كان في مجلسه ذاك ، وتبعني بعض الرفاق .. كنا في السن الظالمة ، اكثر بضاعتنا الصلف والاثرة والغرور ، نتشدق بالفاظ « المثل الاعلى وغاية الحياة والمجد والطموح » واشباهها ، فتنتفخ لها اوداجنا ، ثم تدوّي في اسماعنا ، كموسيقى عسكرية . صرخت : « يا معلمي ! » كالمستغيث ، وتغامز الرفاق . ففتح المعلم عينيه ، ونظر اليّ بعطف غير مشوب ، كأني لم اتعمد اساءة قط ، وقال « ماذا ؟ » فلما قلت : « عندي سؤال ! » وبصر بالاولاد المتزاحمين حول كرسيه يطأون بارجلهم النزقة تلك الدائرة التي خطها السحر برهة ، كما يمحو ويكتب الضارب في الرمل ، احس بخطر مداهم لم يستعد لدفعه ، لانه لا يعلم ما هو . وتردد هنيهة استجمع خلالها شوارد حذره وانتباهه وفطنته .. لكن عاجلته بالسؤال قائلا : « ألا تخبرنا ، يا معلمي ، ما غايتك في الحياة ؟ » وانتظرنا الجواب .. والظاهر ان المعلم كان على مثل اليقين اني طارح عليه احجية من احاجي العلم ، كي اسلي الاولاد بعجزه عن حلها . فلما سمع سؤالي انبسطت اساريره ، رغم شعوره بما وراء ذلك من سخرية ، وقال متمهلا كأنه يفكر في الجواب : « غايتي في الحياة ؟. آكل وانام . » والقى رأسه على كتفه .. ثم قال في شيء من الحدة : « لكن يا معلمي ، هذا سؤال لا يُسأل . » ولعله اراد ان من كان في سنه ، قضى اربعين

عاماً على هذه الكرسي ، في مراقبة الصغار ، وفي مراقبتهم اقل ما يمكن في سويعات يقظته ، لا يسأله عن غايته من الحياة الا غر احمق مثلي ، كأن الحياة غير جديرة بان تكون غاية لذاتها ، لا شيء قبلها ولا شيء بعدها .

لقد مر على الحادثة اعوام واعوام ، لم اطرح اثناءها على مخلوق هذا « السؤال الذي لا يسأل » كما قال معلمي . اليس في الحياة التي يحياهـا اكثر الناس ، وكما يحيونها ، الجواب الكافي الوافي ، احبوا ام كرهوا ، وسلموا بـه ام كانوا له منكرين ؟ لو اني قلت لمعلمي يومذاك متفلسفاً : « الا تظن يا معلمي ، انه لا بد لكل امرىء من رأي في هـذه الحياة واحداثها ؟ . لا بد من ان يتخذ لنفسه موقفاً بازائها ؟ . قد لا يتعدى هـذا الرأي طور الاحساسات الغامضة او الاحكام السريعـة ، وقد لا يكون هذا الموقف بارزاً او صريحاً او مكيناً ، لكن لا مناص منه بحال من الاحوال . ففي طبيعة الوجود ذلـك التفاعل المستمر بين الاحيـاء وبين البيئـة التي يعيشون فيها ، سواء الاحياء الدنيا ام العليا ، وسواء البيئـة المادية ام المعنوية .. فما موقفك انت ، يا معلمي ، من الحياة واحداثها ؟ » لو اني ادرت السؤال على هذا الوجه ، لقال لي معلمي دون ريب : « وانت ؟ هـل ضربـك العمى ، يا معلمي ؟ اتريد موقفاً من الحياة واحداثها ، او الدهر وتصاريفه ، ابرز واصرح وامكن من هذا الموقف الذي اتخذته لنفسي ، منذ اربعين عاماً ونيف ، تارة مهوماً على الكرسي وتارة نائماً

في الفراش ، ثم لا بد بينهما عن مراقبة العفاريت ، كلما جلسوا الدرس او قاموا الى اللعب ؟ وكيف ، بالله عليك ! يمكن ان يرى رأياً في الحياة واحداثها — كما تقول — من يغض النظر الى هذا الحد ؟ انصرف ، يا معلمي ، انصرف ! »

بهذا او بما يقاربه كان المعلم الطيب يجيبنا ، لو سألناه متحذلقين ، عن غايته من الحياة او عن موقفه بازاء احداثها . بل لو كان للخلق بعض صدقه وصراحته ، لقال اكثرهم مثل قوله . لكن الخلق مشغولون بالحياة عن فلسفتها ..

٣

احب ان استأنف هنا حديثي عن ذلك الاديب الاول الذي سولت له نفسه ، في ساعة من ساعات الشيطان ، بعد ان كان على اتصال حي يقظ مستمر ، بهؤلاء الخلق الذين طالما تحدث عنهم اليهم ، ان يقطع هذه الصلة وكل صلة ، فينفض كفه من تراب الدنيا طائعاً مختاراً ، ويترك الناس وهم يضطربون من فسيح ارجائها ، في مثل سم الخياط ، بين الملذات والآلام ، والهناء والشقاء ، والامل واليأس ، ما يبالي من امرهم شيئاً : لا لفرحهم يفرح ، ولا لحزنهم يحزن ، وليس لأي هم من همومهم الوقتية او الدائمة ، في صدره صدى .

ولقد غادرناه يومذاك ، وهو يهم ان يعتزل في برجه العاجي القائم في عل ، فوق السحاب ، حيث لا يرى ولا يسمع الا بعض ما يسمع ويرى العملاق ، من دبيب النمل في مدارجها .

وليست العزلة التي نعنيها ، كعزلة الشعراء والفلاسفة وعامة اهل الفكر ، يحسون حاجة لا تدفع الى الفرار من ضوضاء العالم ومشاغله اليومية ، فيعتزلون اشهراً او اعواماً ، ليطلعوا علينا بعدها بروائع الفن والحكمة .. لا ، ان العزلة لهؤلاء واجبة لا مندوحة عنها : واجبة نحو انفسهم ، ونحو عملهم ، وبالنتيجة نحو الناس الذين من اجلهم ينظم الشاعر ويفكر

الحكيم .. لقد عنينا في مقالنا المقتضب عن الادب او الفن الاعتزالي ، ضرباً من العزلة هو كالقطيعة ، بل القطيعة بعينها ، في اوضح مظاهرها .

والواقع اني لم اتكلم عن هذا الآدمي في برجه العاجي طويلا ، لسبب بسيط غاية في البساطة ؛ هو ان التاريخ لم ينقل الينا من انبائه قليلًا او كثيراً ، حتى كدنا لا نصدق بوجوده لولا ذرية له صالحة يعرفون باسمائهم وآثارهم ، في كل جيل وقبيل . ولنقل ، حسماً للخلاف ، انه كان فيما وراء التاريخ ، رمزاً ليس غير . أليست الرموز كالعقائد والاساطير ، وكالحقائق والاباطيل ، ذات وجود حق لا يضاهيه وجود ؟ وليس يعيبها ان كانت لا توصف طولا وعرضاً وعمقاً كسائر الموجودات ، فكم من الاحياء من ليس لوجوده معنى الا دخوله في بعض التعاريف .. والرموز كذلك ولود ، بل لا تكاد تجد فيها عاقراً : الم تر الى العقائد والاساطير والآراء والمعاني ، كيف يتحدر ، في مدار التاريخ ، بعضها من بعض ، فتتألف اسراً وقبائل وامماً ؟

وليؤذن لي ان اقطع سياق الحديث هنيهة كي انوه بهذه الكلمة : « السحاب » . هي هنا في موضعها ، لم تجر على قلمي اعتباطاً ولا اتفاقاً . ففوق السحاب بنى صاحب البرج العاجي برجه . ولو نحن اردنا ان نمثل الوحدة او البعد فحسب ، لكان لنا بالافق اللازوردي — وفيه من الفتنة ما فيه — غنى عن السحاب . كلا ، لقد اسأنا الى التاريخ من قبل ، فلا ينبغي

لنا ان نسيء الى الجغرافية الآن ، وان كانا في برامج التعليم كثورين شداً في قرن ، لا يفترقان . ولكن يظهر ان الثورين ضاقا ذرعاً بهذه الصحبة التي قضي عليهما بها من عهد بعيد ، وسئماها ، فلما جاء هذا الوقت الذي نعيش فيه ، فشهدا ما لم يكن يخطر ببال ، من سرعة توالي الاحداث وتبدل المعالم وتنقل الحدود ، انتهزاها فرصة يضن الدهر بمثلها ، فكل ثور يشدّ الى ناحيته ، او يعمل على شاكلته .

فاذن ، لا بد في جغرافية الهوج العاجي من السحاب . ولنسمه دفعة : « الضباب » الذي يذكره جبران ، احد متصوفة الشعراء كثيراً ، لا سيما في رسائله الخاصة ، اذ كان يرسل النفس على سجيتها ، وكأن الضباب مصدر وحيه ومادة خلقه . قال في احدى رسائلة الى مي : (انا ضباب يا مي . انا ضباب يغمر الاشياء ، ولكن لا يتحد واياها . انا ضباب لم ينعقد قطراً . انا ضباب وفي الضباب وحدتي ، وفيه انفرادي ووحشتي ، وفيه جوعي وعطشي . ومصيبتي هي ان الضباب ، وهو حقيقتي ، يتشوق الى لقاء ضباب آخر في الفضاء ، ويتشوق الى استماع قائل يقول : « لست وحدك . نحن اثنان . انا اعرف من انت ! » اخبريني يا مي . أفي ربوعكم من يقدر ويريد ان يقول لي : انا ضباب آخر ايها الضباب ، فتعال نخيم على الجبال وفي الاودية ، تعال نسير بين الاشجار وفوقها ، تعال نغمر الصخور المتعالية ، تعال نطوف في تلك الاماكن البعيدة غير المعروفة ..) الخ .

ذلك ما قاله جبران[1] . فهل رأيتم اكثف من هذا الضباب ؟

ولعزلة الاديب في برجه العاجي علاقة ملحوظة وثيقة بنظرية « الفن للفن » من النظريات المحدثة في اوربة ، تسرب الينا طرف منها ، مع ما راج عندنا من السلع المتنوعة التي تخلق هي الحاجة اليها اكثر مما تسد حاجة نحسها فعلا . بل ليس ذلك « البرج العاجي » الا رمزاً يمثل الغرب فيه ما تنطوي عليه هذه النظرية من آراء واحكام في الآداب والفنون : الفن للفن وحده ، لا لشيء آخر ، حتى ولا ليفهم .

وفي قصة (استللو) للشاعر الفرد ده فيني وصفة حكيمة يمن بها الدكتور نوار على الشعراء والمفتنين ، زاعماً ان فيها الشفاء التام والعافية الشاملة ، اليكم ترجمتها : « قم بالمهمة الملقاة على عاتقك حراً طليقاً ، بمعزل عن العالم اجمع . اتبع ما يقضي به كيانك ، بالاستقلال عن كل المشاركات مهما تكن جميلة ، فالعزلة مصدر الالهام . » فاذا اضفنا الى هذا العلاج الناجع ، ذلك الرأي الشائع ، وهو ان العامة بطبعهم اعداء كل جديد ، وكل نبوغ ، وكل سمو ، اجتمع لدينا ما فيه الكفاية لتفسير الموقف الذي يقفه صاحب البرج

---

(1) كذلك « مي » كادت تصيبها العدوى ، فكتبت الى جبران قائلة : « اني ما زلت التقي بك في الضباب ، عالمنا الذي منه كل شيء ، واليه كل شيء يرجع .. » ثم استدركت : « ولكننا من روح وجسد ، ولا بد ان تكون مسراتنا مزيجاً من المحسوس وغير المحسوس — مغزاه : اني يروقني ان التقي بك في الضباب وخارجاً عنه .. »

العاجي ، من فنه ومن الجمهور على السواء .

وقبـــل ان نتساءل عن هذا الموقف ، أطبيعي هو ام اصطناعي ، وفي حيز الامكان ام ضرب من المستحيل ، وقبل ان نعلم أمن المتيسر تحقيقه ، فاستمراره في المجتمع الذي نعيش فيه ام يعترض ذلك مصاعب لا تغلب ، وقبل بحث النتائج الحسنة او السيئة التي يمكن حصولها فيما لو صار هذا الرأي خطة لا يشذ عنها اديب او مفتن .. قبل ان نتساءل عن ذلك كله ، لا نجـــد مندوحة عن التذكير بان اشد الادباء والمفتنين تشيعاً لمذهب العزلة او لنظرية « الفن للفن » واعلاهم صوتاً في الجهر بها والدعوة اليها ، كالاخوين غونكور مثلاً ومن لف لفهما ، كانوا يعلنون على رؤوس الاشهاد ، انهم لا ينظمون ولا ينثرون ولا يصورون ولا يلحنون ، من اجل هذا الجمهور المسكين الذي كُتب عليه أن يعايشهم ويعاصرهم ، دون ان يقدرّ له ان يفهمهم او يعجب بروائعهم ، ثم هم لا يلبثون حتى يعلقوا الآمال العريضة على الاجيال الآتية . فهم اذن يستبدلون جمهوراً بجمهور ، او قراء سيأتون بقراء ذاهبين ، وكأنها حوالة يسحبونها على المستقبل . واذن ، لا غنى للفرد ، مهما تفرد ، عن المجتمع باية حال ، او بعبارة ابسط : لا غنى لكاتب عن قارىء ، ولا للضباب الذي سمي في دنيانا هذه جبراناً عن ضباب آخر يضرب له موعداً في مجاهل الفضاء ..

٤

لم يشهد عصر من العصور كهذا الصدام . ستقولون ان الامم في مشارق الارض ومغاربها ، وفي منعطفات التاريخ القديم والحديث ، قد زعمت ايضاً كهذا الزعم ، فكأنّ كل زمن مفتون بنفسه ، محمول على الغلو في تقدير ما يتصل به وينسب اليه ، حتى وان لم يكن فيه ما يدعو الى التزيد والتمدح .. ان الحرب مصيبة وبلاء ، هذا ما لا شك فيه ، وليس فيها ما يبعث على الفخر او التحدث بالنعمة . لكن الانسان مفطور ايضاً على الاطناب في وصف ما ينزل به من النوازل ، كي يكون صبره اعظم ، والثواب على قدر المشقة .

هذا حق لا مراء فيه . فنحن المخضرمين الذين قدر لهم ان يشهدوا الحربين ، قد سمعنا مثل هـذا الكلام ، خلال الحرب الكبرى التي سميت منـذ عشرين عامـاً ونيف « الاخيرة » . سميت الاخيرة خطأً في الحساب على ما يظهر ، او من قبيل التمني ، او على سبيل الزجر والتفاؤل ، حذر الاصابة بالعين ، بل ربما لهذه الاسباب جميعاً على السواء ، ولاسباب اخرى ابلغ اثراً ، لعل اجدرها بالذكر تسلية الخلق عما كانوا فيه من البلاء ، وتشجيعهم على المضي في القتل والاستقتال الى النهاية . فاذا كان الناس يزعمون كل مرة ان

هذه الحرب ، لا حرب قبلها ولا حرب بعدها ، فكل حرب وانتم بخير !

والواقع ان العالم لم يشهد صداماً كهذا الصدام في شدته وعظمته . وهو يوماً بعد يوم ، يتعاظم ويزداد شدة ، حتى كأن الحرب الكبرى الماضية لم تكن سوى صورة مصغرة عنه ، كعنوان الكتاب ليس يدل ، خلافاً المثل المشهور ، الا على طرف منه يسير ، كما انه في اكثر الاحيان قد لا يدل على شيء مطلقاً . ينبغي ان يكون الكتاب اقل من لا شيء كي يعرف من عنوانه ، او حينما يكون عنوانه مغنياً عن قراءته .

ذلك ان الصدام الذي نشهده او نرى آثاره ليس قتالا تدور رحاه بين جيش وجيش ، بينما اغلبية الامتين المتحاربتين في معزل ، لا تكاد تعلم ان ثمة في ميادين قريبة او بعيدة ، آلافاً من الخلق يتفانون ، وبينما سائر الامم المتحايدة متحايدة بالفعل ، قلباً وقالباً ، مادة وروحاً .

فأولا : لم يبق من امم متحايدة بالمعنى الصحيح . ان هذه الحرب الشاملة قد طغت على كل شيء ، حتى امسى المتحايدون فيها اشد حذراً واهتماماً ، واكثر دخولا في الحرب او مساهمة فيها من بعض المتحاربين . ثم ان هذه الحرب قد ملكت على الناس في اقطار العالم جميعاً ، اهواءهم ومشاعرهم وافكارهم ، وداخلت النيات ، واندست في الضمائر ، فليس لاحد من خلق الله وفيه مسكة من عقل ، ان يزعم انه في معزل عنها ، او في مأمن من غوائلها .

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع !

هذا اولا . وثانياً : ان الحرب التي نشهدها هي حرب كلية او جماعية كما يدعونها ، وهم يعنون بذلك حرباً شاملة مطلقة يتضافر فيها ، لاحراز النصر النهائي ، افراد الامة جميعا ، شباباً وشيوخا ، ذكوراً واناثا ، سواء في الجبهة ام وراء الجبهة ، في ميادين العمل كما في ميادين القتال ، بكل ما اوتوا من قوى وعزائم ، وامكانات وموارد ، لا يتخلف من الافراد فرد ، ولا يوفر من الاشياء شيء . تقول في ميادين العمل ، كما تقول في ميادين القتال . فلقد اصبح في حكم الثابت المقرر ان الكلمة الاخيرة في هذه الحرب الضروس ستكون للذين يجدّون ويعملون ليل نهار ، ويثبتون ويصمدون فيما وراء الجبهة ، او على الاقل ان نصيب هؤلاء من النصر والغلبة ، ليس دون اولئك الجنود الذين يقذف بهم في حومة المعارك ، فيلقاً بعد فيلق .

هذا ثانياً . وثالثاً ، ليس هذا الصدام المشهود حرباً مقصورة على القوى المادية بمختلف انواعها ، تتلاحم وتتطاحن في البر والجو والبحر . ليست حرب اساطيل وطائرات ودبابات فحسب . بل هي ايضاً حرب معنوية فكرية : حرب بين مذهب ومذهب ، بين عقيدة وعقيدة ، يتوقف على نتيجتها الحاسمة مصير العالم اجيالا متطاولة : ترى ، هل يستمر العالم على مسيره المضطرد ، نحو اكثر ما يمكن من الخير والعدل والحق والحرية ، للافراد والجماعات ، ام تقف اليوم في سبيله ،

كي تعوقه عن السير ، او ترجعه الى وراء ، قوة غاشمة ، عاتية آثمة ، يعصف برأسها ، حيناً بعد حين ، جنون العظمة بل التعاظم ، وحمى الاثرة بل الفتك ، فاذا الغبراء ومن عليها مدججة بالحديد ، مضرجة بالدم ؟ هذا هو الزمن الذي كتب لنا ان نعيش فيه . هذا هو بهمومه الملحة واخطاره المباشرة ، بآلامه الموجعة وآماله المغرية .. ولسنا نخشى لومة لائم ، او تهمة متهم بالشطط او المبالغة ، اذا ما قلنا انه لا متحايد اليوم . لا متحايد ، حتى ولا الاديب صاحب البرج العاجي ، في عزلته فوق السحاب ، او وسط الضباب ، حيث يقضي عمره منهمكاً في تلفيق المباني وترويق المعاني . لقد آن ان يهبط الى الساحة ، بين بني آدم المعذبين ، ليشاركهم الآلام والآمال ، والهموم والمخاطر ، والافراح والاتراح . ولعل كل هذا يساوي عنده تلك القافية الشرود التي لا يفتأ يعدو خلفها ، كما يتصيد الاولاد فراشات الربيع .

المستبد يريد الحرية كلها لنفسه

يقول ابو الطيب في احدى قصائده المشهورة :

« .. ودائي قلة الفهم .. »

شطر من الشعر لا يمت الى الشعر ، كما ترون ، الا بقربى بعيدة — من من الشعراء لا يسف الى احط النثر احياناً ؟ وقد لا تكون هذه القربى البعيدة سوى هيبة المتنبي في عالم الشعر ، الهيبة الشعرية التي فاضت عن منظومه البديع ، حتى لتكاد ايضاً تخلع على حياته العملية رقعاً من البهاء الشعري ، رغم ان حياة الشاعر لم تكن في الجملة سوى إخفاق دائم متصل الحلقات . وكان مقتله على الشكل الذي ينقله التاريخ وترويه كتب الاخبار ، آخر حلقات السلسلة .. تصوروا المتنبي منهزماً من وجه اعدائه الذين كمنوا له كي يقتلوه .. ثم تصوروا غلامه وهو يذكّره بيتاً من الشعر كان الشاعر ، لا الفارس ، قاله في قصيدة مدح وعتاب ادخل فيها ، على جاري عادته ، شيئاً من الفخر .

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ثم تصوروا ابا الطيب وقد سمع هـذا البيت ، يكر راجعاً وهو يقول للغـلام : « قتلتني ، قتلك الله ! » أفي الدنيا ، لو صحت الرواية بجملتها او بتفصيلها ، ميتة اسخف من هذه الميتة ، بعد ذالك الحوار بين الشاعر « المستبطل » وغلامه الخبيث ؟ لقد مات المتنبي كما يموت الشجاع ، لكنه لم يوفق ، في هذه الرواية على الاقل ، لان يموت شجاعاً ، وهو أيضـاً ضرب من الاخفاق .

« دائي قلة الفهم ! » ثلاث كلمات ما اجتمعت الا لتقطع على الشعر كل طريق ، على انها جديرة بان تزين بياناً تصدره لجنة من الاطباء ، في تشخيص داء من الادواء … لكن ما لنا ولهذا ، فنحن لم نتناول ذلك الشطر الفريد من منظوم المتنبي ، لنرصع به قصيدة ننشدكم اياها اليوم ، بل لنستهـل حديثاً قريب المتناول ، يكاد لقرب متناوله يدخـل في باب الشؤون العملية ، اي اقرب الاشياء الى المنثور من الكلام .

بيت أو شطر من بيت قاله المتنبي في معرض التحـدي لنفسه اذا هي استمرت على ضلالها وعمايتها عن بضـع حقائق معاشية كان يراها من البديهيات التي لا بد من التسليم بهـا والعمل بمقتضاها . ويظهر أن نفسه كانت متلكئة متباطئـة عن تقبل تلك الحقائق البديهية والاذعان لاحكامها الصارمة ، رغم اختبـار متكرر موجـع ، فهو يؤنبها أعنف تأنيب ، ويقرعها أشد تقريع .

سأذن لنفسي الآن بان أبدل في كلام ابي الطيب ، وما

كنت لافعل لو كان هذا الكلام يعدّ من الشعر في قليل او كثير . لكنه من النثر الذي يصح ان يأتي بمثله رجلان يتهاتران على قارعة الطريق : « دائي — بل داؤك — قلة الفهم .. »

لنبدل لفظة « الفهم » القاسية المتطرفة بلفظة « الفكر » الناعمة المعتدلة ، ولنقل دفعة : « قلة الفكر » فنتخطى النتيجة الى سببها ومصدرها . لست أعني ان الفكر يجب ان ينتج فهماً على الدوام ، بصورة ان احدهما سبب طبيعي للآخر ، كما تؤتي الشجرة ثمرها . فلو أني قضيت عمري متفكراً في كثير من القضايا الرياضية الوسطى او من القضايا الفلسفية العليا ، لكنت حرياً بان اعجز عن اكتناه اسرارها وفض الغازها . لكن لا بد للفهم عن الفكر في أي حال ، ولندع جانباً وحي الملهمين وكشف المتصوفين ، فنحن على سطح هذه الكرة ، بين جمادها ونباتها وحيوانها ، لا في أجواء الآخرة او في مجاهل المغيبات . على ان الكشف والوحي قد لا يكونان ، في الواقع ، سوى نتيجة متأخرة لتفكير خفي بعيد ، من سلسلة تغيب عنا بعض حلقاتها .

لنقل اذن : « دائي قلة الفكر » وليس هذا الداء داء المتنبي وحده ، بل داء أغلبنا في مختلف ظروف الحياة ، ولا سيما الحياة العامة او الاجتماعية . لا جدال في ان الحياة تقوم على العادة التي تنزل بمنزلة الطبع والغريزة ، اكثر مما تقوم على الفكر والتدبر وإعمال الروية ، حتى انها اصبحت ميكانية في

اكثر الاحوال . لكن لم يزل في الحياة ، على هامشها او في صميمها ، متسع للفكر ، ومدعاة للفكر ، وموجب للفكر .
فالحياة الاجتماعية ، ونعني بها علاقات الافراد بعضهم ببعض ، وعلاقات الامم احداها بالاخرى ، وما يلازم هذه العلاقات المشتبكة المركبة من آراء واحكام ونظريات ومبادىء وعقائد ومذاهب ، وما يجد ، كل حين ، في هذه العلاقات ، من أحداث متحولة متطورة ، غير مسبوقة ولا متماثلة — نقول ان في الحياة الاجتماعية كما وصفناها وكما هي في الحقيقة ، متسعاً ، بل مدعاة ، بل وجوباً لتفكير يقظ دائم . وبقدر ما يبتعد المرء عن دائرة حياته الفردية ، ليخوض غمار الحياة الاجتماعية ، تصبح حاجته أمس الى التفكير في الشؤون العامة وتدبرها كي يصدر عليها أحكاماً صحيحة ، ثم يعمل بمقتضى هذه الاحكام .
ليست الحياة الاجتماعية حياة ميكانية ، بل حياة تفكيرية بالدرجة الاولى . ولامر ما كان ذلك الاسلوب في الحكم الذي يسمونه الديكتاتورية ، قائماً بالاصل ، على حرمان الافراد والجماعات من حق او من واجب الفكر ، بل على تحريمه عليهم ، تحت طائلة أشد العقوبات ، وأقسى الاضطهادات ، فيمسي الافراد وكل واحد منهم جزء حقير من آلة عظيمة مهولة ، يدفع بها الحاكم بامره الى حيث شاء ، وهو لا يُسأل وهم يسألون ..

واحب ، هذه المرة ، ان افكر واياكم هنيهة من الزمن قصيرة . وسترون اني لن أذهب بعيداً في طلب النظريات

الحقوقية او الفلسفية ، كما اني لن أحلق عالياً في سماء التخيلات الشعرية او البيانية . احب ان نفكر معاً في هذا المبدأ الذي يسمونه الحرية ، ولعله في الصدام المشهود الذي يعاني الخلق من شدائده ما يعانون .— لعله انفس واغلى مــا تجاهد الديمقراطيات اليوم ، في سبيل صونه والاحتفاظ به ، مضحيــة بكل نفيس وغال .

هل ادلكم على مقياس صحيح تقيسون به نفاسة الحرية ، او قسطاس عادل تزنون بــه جلالة قدرها ، وليس في ذلك كبير عناء ؟ لا نذهب بعيداً . ولا نحلق عالياً . لنفكر قليلا في موقف المستبد او الحــاكم بامره ، من الحريــة التي نحن بصددها . الا ترون ان المستبد انما يحرُم الخلق من الحريــة ويحرّمها عليهم ما امكن ، ليتمتع هو منها باكثر ما يمكن ، كأن في الدنيا كمية محدودة من الحرية ، فهو يأخذها كلها ، حريصاً على ان لا يدع منها شيئاً لسائر الناس افراداً وشعوباً ؟ أليست مناقضات الطاغية الالماني مثلا ، « حرية » جاوزت الحد ؟ انه ليأخذ الحرية حتى مع نفسه ، حينما يعقد مــع روسيا الشيوعية اتفاقاً ، ليتمكن بعده من محاربة اوربة الرأسمالية ، ثم بين بكرة وضحاها نراه يطمع في ان يؤلب اوربة ليحارب بها الروسيا . . . ولقد اخذ ، من قبــل ، حريته مــع الله ايضاً ، فزعم ان له رسالة آلهية وان كتابه هو خاتم الكتب المقدسة جاء ناسخاً ما قبله ، قاطعاً السبيل على ما بعــده . فاذا كان هذا قدر الحرية عند المستبد وهو فرد ، يريدهــا

لنفسه دون حد ، فكيف لا يكون لها قدر عندنا ، ونحن سائر البشر ، نزيدها ضمن حدود العدل الشامل والمصلحة العامة ؟ لو لم يكن من نفاسة الحرية الا حرص المستبد على الاستئثار بها ، لكان من هذه الاثرة حجة بالغة لقوم لم يبتلوا بداء قلة الفكر ، فهم يعقلون .

حكم التاريخ

عقب انتهاء الحرب العظمى الماضية ، اشتهر في العالم المتمدن ، بل الاصح ان يقال : شُهر تشهيراً ، ذلك التقرير الذي كان حاكم بلجيكا الالماني رفعه ، زمن الاحتلال ، الى حكومته ، مثبتاً فيه بضروب من الحجج والبراهين يعرفونها هنالك ولا يعرفون سواها ، ان بلجيكا ذلك البلد المحايد المسالم ، يجب ان يظل رازحاً تحت النير الجرماني الى ما شاء الله ، حتى بعد توقيع معاهدة الصلح . ولقد ختم الحاكم الالماني تقريره الرسمي مستشهداً بكلمة مشهورة للمؤرخ مكيافلي الايطالي الذي ينصح « من اراد ان يستولي على بلد من البلدان بان يتخلص ، بادىء بدأة ، من ملك هذا البلد او حكومته ، وان بالقتل . »

ذلك ما قاله الفيلسوف الايطالي بنصه في كتابه « الامير » . وبهذه الكلمة ايضاً يؤيد الحاكم الالماني تقريره الى حكومته . أليس من غريب الاتفاقات ان يجتمع يومذاك الحاكم الالماني الغاصب ورجل السياسة الايطالي ، فنشهد ، رغم اختلاف العصور ، العنف الجرماني وهو يبسط يده الملطخة بالدم البريء ، لمصافحة

الفيلسوف الايطالي الذي بنى مذهبه السياسي على اسس ظاهرة من المكر والخديعة والاغتيال ؟ ثم أليس من الامور الداعية إلى الروية ان نشهد في كثير من اطوار الحرب الحاضرة ، لكن بصورة أبرز وأجلى ، آثار تلك المؤامرة الشنيعة التي يدبرها العنف والظلم والاغتيال ، مرة بعد مرة وجيلاً اثر جيل ، للقضاء على حرية الافراد الآمنين الابرياء ، وعلى استقلال الشعوب الوادعة المستضعفة ، ثم لسلبها كل ما يجعل للحياة قيمة ، بل سلبها هذه الحياة بعينها كلما أعيت المتآمرين الحيلة ، وضاقوا ذرعاً بصبر ضحاياهم على المحن والشدائد ، في سبيل نصرة المثل العليا التي تشرف الانسان ؟

لقد سبق لفريدريك الثاني ان اختط لخلفائه الالمان ، من قواد وساسة ، تلك الخطط المشهورة المشهّرة التي يجب ، في زعمه ، ان يسلكها المحارب المعتدي لاحراز الظفر ، قال :

« ان الحرب من الامور التي لا يصح للمحارب ان يتحرج فيها من إثم ، أو يتعفف عن جرم ، فلا بد له من ان يحرق وينهب ويفتك » . ان النازيين لا يحيدون قيد شعرة عن هذه الخطط الاثيمة ، لكنها لن تقودهم الى النصر . ولعل من أهم الاسباب التي تهيء فشلهم القريب او البعيد ، تلك الوحشية الضارية التي يسلطونها على أهل البلاد المغتصبة زمن الحرب ، بل بعد ان تلقي هذه الاقوام سلاحها . . ويعجبني في هذا المعنى كلمة بليغة لاحد المفكرين الفرنسيس ، قال ما معناه : « من الخطر الوبيل على مستقبل امة ان يكون ماضيها مثقلاً بالمظالم . » ولعمري انها

لكلمة حق لا يأتيها الباطل ، فالقوى المعنوية في الامم المغلوبة على امرها ، المستباحة دماءها ، المنتهكة حرماتها ، قد تكبح زمناً ، لكنها لا تغلب نهائياً ، ورحم الله شوقي القائل :

ان ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسر فكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون ان سيسودون وان لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جاروا وللدهر مثلهم اهواء ..

ان الشاعر يحدثنا هنا عن « جور الليالي » وعن « اهواء الزمن » مستعملاً الفاظاً مستحبة في الاسلوب الشعري ، كي يبين لنا كيف ينتصف في النهاية ، المظلوم من ظالمه . لكن الواقع هو اننا تجاه قانون تاريخي صارم لا محيص عنه ولا مفر من حكمه ، لصدوره عن مبادىء مقررة في سيكولوجية الافراد والشعوب .

ليس من غرضنا الان ان نقابل بين تلك السنّة القبيحة التي سنها فردريك الثاني لجيشه الالماني صراحة ، اذ امره بان يحرق وينهب ويفتك ، وبين ما اوصى به ابو بكر الخليفة الراشد جنده قائلاً وهو يودعهم : « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه .. » الى آخر ما جاء في وصيته التاريخية المأثورة . لكن لا مندوحة لنا عن الاشارة الى ان النازية تشيد ، في تاريخ امجادها ، ببطولة هذا العاهل الالماني ، وتنصبه مثالا يحتذى ، واماماً يؤتم به ، غير ناسية ايضاً ان فردريك الثاني هو الذي رفع من قدر الجاسوسية

في المانية ، حتى جعلها مؤسسة وطنية ، منذ قال :

« ان المرشال دى سوبيز – وهو قائد فرنسي – اذا جهز حملة عسكرية يتقدمه مئة من الطهاة . امـا انا فيسبق جيشي مئة من الجواسيس » . ومن هذا المصدر الملوكي ، على ما نرجح ، يستقي المؤرخ والفيلسوف الالماني تريتشكي أحد دعاة الجرمانية ومؤسسيها رأيه الصريح بأن « كل الماني صالح او فاضل هو جاسوس بالقوة ، وفي اول فرصة جاسوس بالفعل . » ولا غرو ، فالناس على دين ملوكهم .

يوجد في اللغة اللاتينية رسالة نشرت بالمانيا في القرن السابع عشر ، إثر انتهاء حرب الثلاثين سنة ، لم يوقعها كاتبها ، لكن بعض المؤرخين ينسبها الى قانوني مشهور في ذلك العصر ، وعنوان الرسالة « مداولة مجلس الآلهة للنظر في المحن والشدائد التي تعانيها جرمانيا في الوقت الحاضر » . في هذه الرسالة الطريفة ، رغم قدم عهدها ، نرى جرمانيا وهي مثخنة بالجراح ، تمثل في مجلس الآلهة بأثمالها البالية ، فتأخذ في البكاء والنحيب ، معددة ما نزل بها من البلايا ، واصابها من النكبات ، نادبة سؤ حظها وظلم الاقدار ، على نحو ما شهد العالم المتمدن في نهاية الحرب الكبرى الماضية .. ولقد كان بوسع جرمانيا ان تطيل كثيراً في وصف بلواها ، وترديد شكواها ، عسى ان ترق لها افئدة الآلهة ، لو لم تنتصب بغتة غيزيس ربة الانتقام التي لعبت برأسها سورة الغضب ، فتقاطعها بعنف قائلة : « كفى ، كفى ! انت وحدك سبب هذه النكبات والبلايا . لقد فتكت بالملايين من

اهل بوهيميا سنة ١٦٢٠ واغريت الجيوش الاسبانية باجتياح هولندا . فعلى رأسك تقع تبعة هذه المظالم . انت وهبت ذاتك روحاً ومادة ، قلباً وقالباً ، من اسرة ملكية ضارية قضت القضاء المبرم على جميع الحريات ، اينما ثقفت ، لانها تريد لنفسها امبراطورية لا تغرب عنها الشمس .. ذوقي اذن ما جنته يداك الاثيمتان ! ».

هذا ما قالته لجرمانيا ، بعد حرب الثلاثين سنة ، في مجلس الآلهة ، نيمزيس ربة الانتقام ، وقد اخذتها سورة الغضب . وهو ايضاً ما يقوله لها التاريخ الذي يعيد نفسه .. بكل برودة .

دعاية ذات وجهين

لعل من اطرف النماذج التي أخرجتها حديثاً دار الدعاية النازية ، وهذه الدار ، كما تعلمون ، مصنع متقن الجهاز دائم الحركة ، ليس دون المصانع الحربية في المانيا غزارة مادة وضخامة انتاج — لعل أطرف نماذج الدعاية النازية ، واجدرها بالنظر والعبرة ، ما أقصه عليكم الان .

ماذا يقول الالمان وقد هالهم صمود القوى الحرة في العالم ، شرقاً وغرباً ، وتضافر كلمتها في حلف لا انفصام له قبل تجريد النازية من سلاحها الاثيم ؟ ماذا يقول الالمان وقد رأوا شبح الهزيمة المحتومة في موكبه الحافل بالمحن والبلايا ، قاب قوسين منهم او ادنى ؟

ان الالمان يولون وجههم ، هذه الايام ، شطر الغرب تارة ، وشطر الشرق تارة اخرى . بل بحركة ميكانية عجيبة ، يولونه شطر الغرب والشرق في وقت معاً .

يولون وجههم شطر الغرب ، فيخاطبون الامم الانكلوسكسونية ببساطة لا حد لها ، قائلين : واأسفاه ايها

الانكلوسكسون ، ان رؤساءكم قد باعوكم من الروس البلاشفة .
وباسرع من لمح البصر يولي الالمان وجههم شطر الشرق ، فيخاطبون الروس بمثل تلك البساطة قائلين : واحسرتاه ايها الروس ، ان زعماءكم قد باعوكم من الانكلوسكسون .
اجل ، هو كذلك لا اكثر ولا أقل .
يجب ان يكون روزفلت وتشرشل الفريق الاول ، وستالين ومولوتوف الفريق الثاني ، قد اجتمعوا في ليلة غير مقمرة كدماغ الماني متاجن ، فاخذوا في البيع والشراء ، وكانت صفقة لم يسبق لها في التاريخ مثيل . بقي ان يصدق الروس والانكلوسكسون هذا النبأ التجاري العظيم الرائج في سوق برلين ، لكن تلك قصة اخرى كما يقولون .
ان الدعاية النازية ذات وجهين ، بل عدة وجوه .. عدة وجوه مستعارة تضعها وتنزعها في مختلف الظروف وشتى الاحوال ، كأنها مسخرة دائمة ابدية . على ان هذه الوجوه المتبدلة المتحولة ما كانت لتخفي عن العالم وجهها الحقيقي — وهل يخفى القمر؟
ماذا تقول أبواق الدعاية النازية للشعوب العربية والاسلامية؟
تقول ، وببساطة لا حد لها أيضاً ، ان احد اغراض هذه الحرب الطاحنة التي تخوض المانيا (مرغمة ?) غمارها ، تحرير الشعوب العربية والاسلامية من السلطان الاجنبي ، وتحقيق ما تطمح اليه نفوس ابنائها الغر الميامين ، والابطال الاشاوس ، من حرية واستقلال ، ودعة وأمن ، وبسطة في العيش ورفاه ، وعزة وكرامة .

لندع جانباً مصير البلدان الاوربيــة التي ترزح منذ نحو عامين تحت الكابوس الجرماني وما يلازمه من خنق الحريـة بالفتك والارهاب ، ومن تعفيــة معالم الاستقلال بالحكم العسكري المباشر ، ومن فقدان الامن والرفاه بمختلف وسائل الاجاعة والابادة . لندع كل هذه الطلائع غير الميمونة للنظام الجديد الذي تمني النازية العالم بتحقيقه لخير البشر وصلاح العالم . ولنرجع الى الكتابات الكثيرة التي سجل فيها مؤسسو النازيـة ودعاتها مذهبهم السياسي بخطوطه الاساسية وتفصيلاته الفرعية . ماذا يقول مثــلاً داعيتهم الاكبر روزنبرغ ، وهو من هو في جلالة قدره وعظم مكانته عندهم ، حتى كادوا يرفعونه الى مقام النبوة ؟

ان روزنبرغ في مؤلفــه Le mythe du XXe siècle الذي يعتبر من كتب النازيين المذهبية ، يتكلم بازدراء عن هؤلاء النفر من الناس (او الآدميين اذا امكن القول) الذين يطلبون الحرية لانفسهم ولامهم ، بحجة ما يزعمونه من حق الشعوب في ان تقرر مصير ذاتها بذاتها . ثم يستطرد الى ذكر الحركات الوطنية في الاقطار العربية ، ونوازع الاستقلال عند شعوب آسيا وافريقيا فيختم كلامه قائلاً ما ترجمته : « كل هذا لا يهمنا مطلقاً ، او لا يهمنا الا بمقدار ما يسع السياسة الالمــانية ان تسخره او تستخدمه لدعم الجرمانية ولتأييدها في العالم . » في هذه الكلمة « التسخير » ما فيه الكفاية . وان مفهومها ليفتح ابصارنا على آفاق مظلمة سوداء لا تشبه بوجــه ما ، تلك الصور المشرقة

الخادعة التي ترائي بها الدعاية النازية ، حينما تخص بخطابها بلدان الشرق العربي .

هنا ايضاً دعاية ذات وجهين ، لكن على نمط او اسلوب آخر :

ان النازية تستغل في الشعب الالماني جنون العظمة ، والاثرة القومية ، والحرص على جر المغانم . فتسول لهم المضي في الحرب الى النهاية ، أي حتى يتم لهم ما يرجونه من السيطرة على العالم ومن تسخير شعوبه لمصالحهم ومرافقهم ، بحجة ان الالمان هم الشعب المختار ، وله الأفضلية على سائر الشعوب . لكن النازية من جهة ثانية ، تخاطب هؤلاء الشعوب بلسانهم زاعمة انها تريد لهم الصلاح والخير ، وان مطالبهم ونزعاتهم هي حقة مشروعة عادلة ، وان المانيا الكفيلة بتحقيقها واخراجها الى حيز الفعل .

اجل ، عين المطالب والنزعات التي يقول داعية النازية روزنبرغ لمواطنيه الالمان « انها لا تهمهم مطلقاً ، أو تهمهم فقط بمقدار ما يمكن السياسة الإلمانية ان تستخدمها وتسخرها لدعم الجرمانية وتأييد سلطانها في العالم . » بقي ان تصدق شعوب الشرق العربي ان المانيا في طريقها الى النصر الذي يبتعد ويبتعد حتى يوشك ان يغيب عن نظرها ، لا هم لها ولا مهمة الا ان تنثر علينا نحن الشعوب المستضعفة ، حرية واستقلالا ، عزة وكرامة ، غنى ورفاهاً ، كما تنثر اكاليل الزهر على جانبي الطريق . لكن تلك قصة اخرى كما يقولون .

ان بعض الالفاظ تجتمع اجتماعاً عجيباً لا رجاء معه في قطيعة او انفصال . لست اعلم من كان السابق الى استعمال هذه العبارة البليغة : كذب فاضح . لكنني اعلم انه قد وفق فيها الى ابعد مدى . فاذا كان هناك كذب فاضح وآخر غير فاضح ، فهذا الكذب الذي اعطيتكم مثالين منه ، مما تخرجه دار الدعاية النازية ، هو الفضيحة بعينها . فأن يكن في ابناء آدم نفر كثير او قليل ما زالت تنطلي عليهم هذه الاباطيل ، فقد آمنت ان الحماقة – وليس القناعة كما في الامثال – كنز لا يفنى . فهذا الكذب هو من النوع الذي لا يُصدق ، لا يصدقه الا من «يريد» ان يصدق . ان هتلر واعوانه يكذبون على الشعب الالماني ، فليس بعجيب ان يكذبوا ايضاً على العالم ، وهم يفعلون ذلك في وقت معاً .

لقد اصبح حبل الكذب ، في يد الطاغية الجرماني طويلا ، جد طويل ، يهم ان يحيط بالكرة الارضية كخط الاستواء . . ومن أجدر منه بان يعقد طرفي الزنار ؟ ولعله لهذا ، ولهذا وحده ، يطمع في ان يملك العالم .

مدنيّة وبربريّة

بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عاش العالم ، خلال عشرة أعوام ونيف ، في جو من التفاؤل تكاد لا تشوبه سحابة من تلك السحب السوداء التي تنذر بالويل ، ثم تقطر دماً . كانت تجتازه سحب صيفية ، لكنها لا تلبث حتى تنقشع وتزول . ولقد خيل للناس في تلك الفترة التي لم يطل زمنها ، ان العلاقات بين الامم والحكومات آخذة في الاستقرار على اسس راسخة من التضامن والتعاون ، او على الاقل من حسن الجوار . ولعل هذا التفاؤل الذي أثبتت خطأه الاحداث القريبة ، احد العوامل المسؤلة ، بالواسطة ان لم يكن مباشرة ، عن الصدام المدمر الدامي الذي يعاني الخلق من بأسائه ما يعانون ، ولا ندري في اية مرحلة نحن اليوم ، من مراحله الصعبة الكؤد .

بينا كانت الالسنة ، خلال الاعوام الرغدة ، لاهجة بالحق الدولي وبعصبة الامم ، والضمائر مطمئنة الى الرأي القائل بان كل حرب ، مهما تكن أسبابها ونتائجها ، هي صفقة خاسرة

للغالب والمغلوب على السواء ، وبينما كانت الديمقراطيات الغربية تنفق مواردها عن سعة في مطالب الحياة السلمية ومرافقهـا ، كانت الحكومات النازية ، ليل نهار ، سراً وعلانية ، تعد عدتها وتأخذ اهبتها ، كي تطلع على العالم في الوقت الذي تختاره ، بجهازها الحربي العظيم وشره المستطير . وليس ادل على هـذه الحقيقة الناصعة من البون الشاسع ، من حيث الحشد الحربي ، بين الديمقراطيات وخصومهـا المعتدين المغيرين — ذلك البون الشاسع الذي ظهرت آثاره منذ معارك سنة ١٩٣٩ وما تلاها . ترى ، أتكون الديمقراطيات قد ارادت حرباً يتوقف على نتيجتها الحاسمة مستقبل العالم اجيالاً متطاولة ، وهي لم تعد لها العدة ، ولم تأخذ الاهبة ، في حين ان الحكومات النازية قد زُجت مسوقة مرغمة في غمـار هذه الحرب الضروس ، وهي التي قضت أعواماً في إعدادها والتأهب لهـا ، جاعلة المانيا من اقصاها الى اقصاها ، معملاً لصنع السلاح ، وثكنة لتجييش الجيوش؟ اللهم لا . . إلا ان يقال مثلا ، ان على كاهل الديمقراطية تقع تبعة هـذه الحرب العالمية ، ولماذا؟ لان الديمقراطية لم تضعف ولم تهن عزيمتها ، بل صمدت في وجه السلاح الحربي الجبار الذي أعدته النـازية لاجتياح البلدان المطمئنة بحجة المجـال الحيوي ، وللسيطرة على الشعوب المستضعفة بحجة الافضلية الجنسية ، ثم لا تلبث ان تبسط على الدنيا ومن فيها سلطنة نازية مستمدة من حق القوة ، وحق المادة ، وحق الاثرة ، وحقوق اخرى من هذا الطراز ، لا ظل للحق فيها ، ولا للخير ، ولا للعدل ، ولا لمبدأ من المبادىء التي

تجعل للحياة قيمة . ان اوربة تختبر ، منذ عامين ونيف ، اختباراً موجعاً ، بوادر ذلك النظام الجديد الذي تمني النازية العالم بتحقيقه ، والذي كان يخشى تحقيقه فعلاً لولا صمود الامم الانكلوسكسونية في الغرب ، واستبسال الشعب الروسي في الشرق ، ونشاط القوى الحرة في البلدان الاوربية وفي طليعتها فرنسا ، كما تنشط القوى الكامنة في احشاء الارض منذرة بانفجار البركان . وهكذا اثبتت الاحداث المتوالية منذ بدء هذه الحرب انه لم يزل في العالم حماة للمدنية وانصار للترقي الانساني ، يضحون بكل غال ونفيس لصيانة المثل العليا التي تستهدفها الانسانية من أقدم ازمنة التاريخ ، وفي رأس هذه المثل العليا العدل والحرية والرفاه .

والواقع ان الخلاف بين الديمقراطية والنازية لم يقتصر على انه خلاف مؤقت عارض ، بين اسلوب في الحكم واسلوب ، او بين مذهب في السياسة ومذهب . انما هو ، فيما وراء ذلك ، خلاف يتناول اصل المدنية وعلاقة الانسان بالانسان مجتمعاً ومنفرداً . ما هو الموقف الذي يقفه كل من هذين المبدأين او النظامين بازاء ما يسمونه : الطبيعة — الطبيعة بقواها الخفية والظاهرة ، ولا سيما بنواميسها المعروفة والمجهولة ؟ واذا قلنا : المجهولة ، فنحن نعني بالبداهة ، تلك الدائرة التي كانت ، في مستهل التاريخ شاملة كل شيء ، كالظلمة التي غمرت الخليقة في البدء ، قبل ان يقول الله للنور : « كن ! » فكان . ثم اخذت الدائرة اللامتناهية تبرز حدودها ومعالمها ، وتضيق وتتضاءل بتقدم المعارف الانسانية ، وبسيطرة البشر على قوى الطبيعة وتسخيرها لمرافقهم

وحاجاتهم .

ولايضاح هذه الحقيقة ، لا بد من ان نذكر القراء بان بعض فلاسفة الالمان ودعاة النازية الذين تبعوهم ، يصرحون بوجوب احلال الشرع البيولوجي او الطبيعي محل الشرع الدولي او المدني . فالحق الطبيعي ، على حد قولهم ، سابق لكل مدنية ، وهو مبني على القوة ، ولا تعرف الطبيعة حقاً سواه . ان الذئب يفترس النعجة ، والطاهية تذبح الارنب، عملًا باحكام تلك الشريعة . ولما كان الالمان النازيون يعتقدون في انفسهم افضلية على سائر البشر كأفضلية الذئب على النعجة ، او كأفضلية الطاهية على الارنب ، فلا بدع ان كان لهم بازاء سائر الامم تلك الحقوق ، وعلى سائر الامم نحوهم ما يقابلها من الواجبات . وان جماعة هذا شأنها تؤمن بأفضليتها الجنسية على شعوب الارض ، وتعزز هذه الافضلية بما تزعم من رسالة الهية ، لا يمكن ان تسلم بمبدأ من مبادىء الحق والخير والعدل ، وان تكون مرتبطة بعهد او ذمة او ميثاق . ومن الخطأ الفاحش ان يكتفى بالاحتجاج على ذهنية اثيمة مؤذية كهذه ، كما انه من العبث استنكار العمل « الوحشي» الذي يأتيه الذئب نحو اخيه الخروف، او الاحتجاج عليه .. يجب ان تعرف تلك الذهنية حق معرفتها ، وان يتوسل العالم المتمدن بما في ميسوره من الوسائل لدفع غائلتها ومنع اذيتها ، لا ان يعيش في جو من التفاؤل الآفن ، والطمأنينة الخادعة .

منذ قال تلسيت : « ان الجرمان يكرهون السلام » مرت

قرون واجيال . فماذا يقول هتلر اليوم ؟

يقول ما نصه : « ان الحرب شيء طبيعي . ان الحرب مادة كل يوم . ان الحرب ازلية سرمديه . ان الحرب هي الحياة . » وليثبت هتلر للملأ عامة ان الخلاف ، كل الخلاف بين الديمقراطية والنازية ، انما يرجع الى الموقف الذي يقفه اولاً واخيراً ، كل من هذين المبدأين او النظامين ، بازاء ما نسميه المدنية ، يقول الطاغية لشعبه : « يجب ان نكون برابرة ! . . » ولكن هل يحتاج النازي الى ان يقسروا طبعهم كثيراً ، كي يصبحوا برابرة ؟

تلك حرب البربرية على المدنية ، لم تعلن ولا يمكن ان تعلن بابلغ من هذه الصراحة الوقاح . .

حق الشعوب بين مذهبين

في عام ١٨٧١ كتب العلامة الفيلسوف ارنست رنان رسالة قيمة خالدة ، يرد بها على عالم الماني يدعى ستروس ، قال رنان :

(لا تلم المذهب الفرنسي الحر الذي يرى ان حق الشعوب في ان لا تنقل ، دون رضاها ، من حكم الى حكم ، او من سلطان الى سلطان ، هو حق الهي مقدس ... نحن لا لا نسلم لاية دولة بان تتنازل عن جماعة من الناس لدولة اخرى ، كما تباع السلع وتشرى .. لو كانت الاراضي او البلاد التي تعطى ، قفاراً غير مأهولة ، لكان في المسألة نظر . لكن الاقوام الذين يسكنونها هم اناس احرار ، وعلينا واجب لا يسعنا اغفاله او اهماله ، هو واجب حفظهم ورعايتهم كي يظلوا محترمي الجانب .)

هذه نبذة مقتضبة من رسالة الحكيم الفرنسي ، تبين بوضوح وجلاء ، المذهب الفرنسي الحر القائل بحق الشعوب في ان تكون لها الكلمة العليا ، حينما يراد تقرير مصيرها ..

لقد وصفنا الرسالة التي يرد بها العالم الفرنسي على زميله الالماني ،

بانها قيمة خالدة : اما قيمتها فلا حاجة للتدليل عليها ، لا سيما بالنسبة الى الامم الصغيرة او المستضعفة مثلنا ، التي انما تطمع الدول العظمى في التوسع على حسابها . ولا ازال اذكر ما احدث في نفوسنا ، بعيد الهدنة ، نبأ تنازل حكومة فيشي او امكان تنازلها عن سورية ولبنان لدول المحور ، من شعور الدهشة ، فالخيبة ، فالاستنكار . ثم جاء اعلان مندوب الفرنسيين الاحرار ، استقلال هذين البلدين الكريمين ، حدثاً خطيراً اقل ما يقال فيه انه أقرب الى افهامنا ، واندى على قلوبنا . انها فرنسا الحرة تعمل بالرأي الفرنسي الحر الذي نادى به ارنست رنان وكثيرون غيره من اهل الرأي ، فكأنها مهمة فرنسا الفكرية منذ قرن ونصف قرن ، في العالم المتمدن .

هذا من حيث قيمة الرسالة التي نقلنا نبذاً منها ، دون ان نحتاج في التدليل على قيمتها الى زيادة شرح ، او فضل بيان . اما من حيث خلودها وبقاؤها على وجه الدهر ، فيكفي ايضاً لاثباته ان نقارن بهذا النص الفرنسي نصاً آخر احدث عهداً ، لكنه نازي — قال هتلر في كتابه المشهور « كفاحي » ما ترجمته بالحرف : « نحن بحاجة الى اراض وبلدان ، حتى ولو كانت مأهولة من شعوب اخرى . . سوف نكيف مستقبل الشعوب وفقاً لحاجاتنا نحن . . »

ارأيتم هذه الجملة القصيرة التي تبدأ بنحن ، وتنتهي بنحن ، ولا تدور الا على « محور » الحاجة ؟ (نحن بحاجة . . وسنكيف مستقبل الشعوب وفقاً لحاجاتنا . .) اما حق الامم

في تقرير مصيرها ، وكرامة الامم عند ذاتها ان لا تؤخذ او تعطى كالسلع ، بل احترام الانسان اخاه الانسان ، فتلك اساطير واباطيل في نظر النازية لا وزن لها بازاء ما تعتبره او تتوهمه او تعلنه حاجة من حاجاتها .

يقول ارنست رنان : (لو كانت الاراضي او البلاد التي تعطى ، قفاراً غير مأهولة لكان في المسألة نظر .) ويقول هتلر : (كلا .. بل لو كانت مأهولة من شعوب اخرى ..) يقول ارنست رنان : (ان الاقـوام الذين يسكنون تلك الاراضي هم اناس احرار ، وعلينا واجب حفظهم ورعايتهم كي يظلوا محترمي الجانب .) فيرد هتلر عليه قائلا : (كلا ، نحن سنكيف مستقبل هذه الشعوب وفقاً لحاجاتنا ..) ولا اخاله يعني غير حاجة النازية الى السلب والنهب ، وشهوة النازية الى الفتح والتوسع . واني لاتحدى اياً كان ، ان يدلني على حاجة او شهوة ، غير تلك الحاجة وهذه الشهوة . وما يدرينا لعل حاجة النازية ان تباد الامة المجاورة ليأخـذوا هم محلها الذي يسمونه حينئذ « مجالا حيوياً » لهم !

لقد تساءلت خلال هذه الحرب ، بيني وبين نفسي ، عن امور شتى ، لكن ثمة امراً ذا بال شغل فكري زمناً بنوع خاص ، وهو : اذا كان هتلر قد نوى — كما يظهر — تكييف مستقبل شعوب الارض جمعاء ، وفق هواه ومشتهـاه ، فلا بد من ان يكون قد فكر فينا نحن ايضاً ، اهل هـذا الساحل اللبناني .. ترى ، مـاذا يكون حظنا من ذلك

التكييف الآتي كقضاء الله وقدره ؟!

خطر لبالي ، اول وهلة ، ان هتلر سوف يرجع في امرنا الى التاريخ يستوحيه ويستمد منه : ان اهل هذا الساحل اللبناني العريق قد اخترعوا الابجدية في الماضي ، ولا جدال . فما يمنع ان يكونوا في المستقبل ، معلمي الالفباء في كتاتيب العالم ؟ .

كلا ، ليمكن تكييف مستقبلنا على هذا الشكل او على اي شكل آخر ، لا بد من افتراض ان النازية ستنتصر ، وهي لن تنتصر . بل ما اقول ؟ انها اخذت تنكسر .

لقد أخذت النازية تنكسر بصمود ما في العالم من قوى حرة لا تغلب ، في وجه الجهاز الحربي الذي اعده الالمان لتهديد ما في العالم من قيم مادية ومعنوية ، ثم بتحالف تلك القوى الحرة تحالفاً لا انفصام له قبل تجريد النازية من سلاحها الاثيم .

والى هذه القوى الحرة التي لا تحد ، اشار رئيس الفرنسيين الاحرار الجنرال دى غول في ندائه الاول مخاطباً جميع الفرنسيين حيث يقول ، اثر توقيع الهدنة : « كلا ، لم يضع شيء بعد ، لان هذه الحرب حرب عالمية . ان في العالم قوى حرة عظيمة لم تقاتل . وسيأتي يوم تسحق فيه هذه القوى ، العدو سحقاً . »
تنبأ الجنرال دى غول تلك النبوءة الصادقة قبل ان تخوض حكومات الاتحاد السوفياتي والولايات الاميركية المتحدة غمار هذه الحرب العالمية الكبرى ، وقبل ان تبدو بشائر سحق النازية في ساحات القتال . ولعل ابرز صفات الرجل العظيم

وأوضح مؤهلاته للزعامة الحقة ، بعد نظره في الامور مع سعة الاحاطة بوجوهها العديدة . لقد علم الجنرال دي غول ان هذه الحرب الكبرى لا تنتهي ولا يمكن ان تنتهي بتوقيع هدنة بين المانيا واية حكومة فرنسية ، حتى وان يكن على رأسها رجال دخلوا التاريخ من بابه الواسع ، لكن لم يلبثوا حتى خرجوا من باب هو اضيق من سم الخياط . وقد علم دي غول ان هذه الحرب ليست حرباً بين المانيا وفرنسا فحسب ، بل هي حرب عالمية ، بين ما في العالم من قوى الخير والعدل والحق والتقدم جميعا ، وبين ما فيه من قوى الاثم والظلم والاستعباد والرجعية جميعا .

فرنسا الحرة حركة ثورية

من يقل فرنسا –
يقل : ثورة . .
الجنرال دي غول

ايما كاتب او باحث يتصدى للكلام على « حقوق الانسان » وعلى المدى الذي اجتازته هذه الحقوق ، سواء في مضمار العلم النظري ام في مضمار التطبيق العملي ، فلا مندوحة له عن ان يخص الشعب الفرنسي بفصل من اشرق فصول التاريخ وأروعها وأبقاها على الايام ، والا فذلك الكاتب او الباحث بعيد عن احترام نفسه وعن انصاف الحقيقة . ولنقل دفعة واحدة دون ان نخشى لومة لائم او تهمة متهم بالاسراف والشطط ، إن امرءاً هذا شأنه انما « يظلم » عامداً او متعمداً ، الانسان وحقوقه ، والعلم وكرامته .

لسنا نزعم ان الشعب الفرنسي ابتدع حقوق الانسان المدنية والسياسية من العدم ، ولا انه ارتجلها بين بكرة وضحاها ارتجالا . فالمدنية الحقة لا تعرف هذه الاثرة الجنسية التي تريد النازية الضالة المضلة ان يوصم بها الفكر البشري ،

أشنع وصمة . وان الحكماء والفلاسفة والانبياء والرسل ، على اختلاف المواطن والنحل ، نادوا بحقوق الانسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ودعوا اليها . وليست مراحل التمدن الانساني سوى خطى ضيقة تارة ، وتارة واسعة ، مترددة تارة وتارة ثابتة ، نحو اقرار هذه الحقوق في المجتمع ، باقرب ما يمكن الى الكمال واكثر ما يمكن من الشمول ، كأن البشرية تسمو الى مثلها العليا في سلّم — لولبية ، أجل — لكنها سلم ذاهبة صعداً ، على كل حال .

أقل ما يقضي الانصاف ان يقال ويجهر به ، هو ان الشعب الفرنسي كان سباقاً الى اعلان حقوق الانسان السياسية والمدنية بمدلولها الحديث ، في وجه العالم قاطبة ، سباقاً الى تأييدها ونصرتها في جهاد تقطر منه صحائف التاريخ دماً — دم شهدائه وابطاله .

لقد سبقت الثورة الفرنسية وتقدمتها زمناً ، ثورات في بلاد اخرى ، لكن لم يكن لاحدى هذه الثورات المزية العالمية الانسانية التي اتسمت بها ثورة ١٧٨٩ وما تلاها . فالى الامة الفرنسية ، بالدرجة الاولى ، يرجع الفضل في ان حقوق الانسان المدنية والسياسية داخلت الضمير الانساني حتى أصبحت جزءاً متمماً له ، عريقاً فيه ، وجاوزت طور الاوضاع السياسية والحكومية ، كي تصبح اسلوب تفكير ونهج حياة ، للافراد والامم على السواء .

لنضرب مثلاً ثورة ١٨٤٨ : في تلك السنة ثار الشعب

الفرنسي على ملكه لويس فيليب واعلن جمهوريته الثانية ، فماذا كان ؟ هل ظلّ هذا الحدث محصوراً أثره ، مقصورة دلالته ، في فرنسا وعلى الشعب الفرنسي ؟ لا ، لقد كانت ثورة ١٨٤٨ الفرنسية اشارة انذار ساطعة شهدتها اوربة من اقصاها الى اقصاها — اشارة انذار الى سائر الشعوب . لقد علمت اوربة يومذاك ان المسألة ليست تبديل نظام حكومي بنظام آخر ، ولا الاستغناء عن « خدمات » اسرة ملكية باسرة اخرى ، لكنه استئناف السير بالثورة الفرنسية الكبرى من الموضع الذي اوقفتها الرجعية فيه ، حتى تبلغ مبادىء الثورة غايتها ، ليس في فرنسة وحدها ، بل عند الشعوب الاوربية وشعوب العالم ايضاً . في ذلك اليوم أصبح تحرير الشعوب المغلوبة على امرها ، وتحرير الافراد في ظهراني تلك الشعوب ، شيئاً واحداً بعد ان كانا شيئين مختلفين . بهذا قضى الثائر الباريسي ، الذي اقتلع حجارة شوارعه ليتسلح بها ، في نضاله الدامي لنصرة حقوق الفرنسي في فرنسا وحقوق الانسان في العالم . ورحم الله اناتول فرانس القائل : « ان على باريس مهمة ، ومهمتها ان تعلم الدنيا . فمن ارض شوارع باريس التي طالما ثارت حجارتها لنصرة العدل والحرية ، تفجرت الحقائق المعزية المنقذة . » لكن يوسعنا ان نطلق كلمة اناتول فرانس البليغة على ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ على السواء : حلقات مفرغة في سلسلة ذهب .

ان الشعب الفرنسي شعب ثوري باوسع معاني الكلمة

واسماها .. شعب « تقدمي » . وكأن هذا الشعب يعضه ويحز في نفسه ، عصراً بعد عصر ، وجيلا اثر جيل ، ان يرى البشرية ، في سياق تطورها الفكري الاجتماعي السياسي ، تتسكع في مكانها ، تحرك قدميها دون ان تخطو خطوة ، فهذا الشعب يندفع ويدفع العالم معه بعنف ، الى الامــام .. ان الشعب الفرنسي يحمل على كاهله اعظم تراث ثوري عرفه التاريخ .

واذا ما ذكر هذا التاريخ ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و١٨٤٨ و ١٨٧١ فلن يجد بداً من ان ينوه ايضاً بثورة الجنرال دي‌غول. و « فرنسا الحرة » على الرجعيــة اينما تقفت ، وباي مظهر ظهرت ، سواء في فرنسة نفسها ، ام في العالم باسره ، اعلانــاً لحقوق الانسان منفرداً ومجتمعاً . ومــا يدرينا ، فقد لا تكون هذه الحركة الفرنسية الحرة ، في تراث فرنسا التقدمي الانساني ، آخر حلقات السلسلة . فــان من الشعوب من يفرض عليــه التاريخ ضروباً من المهام لا مناص له من انجازها .

◆

في احداث الدهر الجسام ، يسكت المرء فلا ينطق بلسان ، ويسكن فلا يأتي بحركة ، كأن كل كلمة وكل حركة ، دون ما هو فيه ، ودون ما بنفسه . وهكذا الامم .

اليوم سكتت فرنسا لا عن عيّ ، وسكنت فرنسا لا عن عياء . كرجل واحد ، يخفق في صدر ارجل قلب واحد ، يلتهب هذا القلب بعزم واحد . وكأن الروح الفرنسي في تصلبه وتوتره ، قوس تُشد كي ترمي الى غرض واحد : النصر .

خمس دقائق بكت فرنسا فيها ساكتة ساكنة ، شهداءها واكرمتهم ، وأحيت ذكرهم بل احيتهم ، فهم في صدر كل فرنسي .

من اقصاها الى اقصاها بكت فرنسا صامتة ابلغ صمت ، ساكنة اروع سكون . صمت كالكلم الطيب ، وسكون كالعمل الصالح ، يرفعه الله اليه ، ويخلده التاريخ .

هنيهة من الزمن ليست تعدّ في عمر فرد من الافراد ، فكيف في حياة امة من الامم ؟ اجل ، لكنها هنيهة وسعت آلام فرنسا وامجادها ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فكأنها المنيهة التي «جمع الزمان» فيها على حد قول شوقي . وهل كان التاريخ الا صحائف معدودات ، تشرق اسطرها بامثال هذه الهنيهات؟

اقول « فرنسة والروح الفرنسي » . لكنني لا انسى طرفة عين ان هؤلاء الشهداء الذين تبكيهم امهم اليوم ، لم يقتلوا في سبيل وطنيتهم فحسب ، بل في سبيل المثل العليا التي نؤمن نحن بها ، ويؤمن كل بشريّ جدير بهذا الاسم . يؤمن بها الذين لم يزل لمبادىء الخير والحق والعدل والحرية قيمة في نفوسهم ، بل هم لا يؤثرون عليها شيئاً . فأولئك الشهداء ليسوا شهداء افرنسيتهم فقط ، بل شهداء انسانيتهم ايضاً وبالدرجة الاولى .

لقد طالما تساءلنا عن المعجزة التي تظهر في فرنسا ساعة الخطر . هي هذه المعجزة الدائمة المستمرة ، معجزة كل يوم وكل ساعة ، في صبر الفرنسيين على الشدائد وصمودهم للمحن ، في رباطة جأشهم لدى الكوارث واستبسالهم لنصرة المبادىء التي لا معنى لحياة الامم والافراد بدونها . هي في هذه القوس التي تُشدّ لترمي الى النصر ، ولا تخطىء النصر .

اما صمت فرنسا وسكونها خمس دقائق ، وما في هذا الصمت البليغ والسكينة الرائعة من بأس شديد ، وما سيكون لها من اثر بعيد ، فأمر يعلمه الذين يثقون بالقوى المعنوية وبأنها قد تُكبح حيناً من الزمن ، لكنها لا تغلب نهائياً .

وهكذا فان فرنسا الحرة وما في العالم من قوى الخير ، لم تغلب ولن تغلب ، رغم كل شيء ، ولا سيما البلاغات العسكرية . فالحق يعلو ولا يعلى عليه . وتباً للامر الواقع !

٣١ تشرين الاول ١٩٤١

جهاد الشعب الفرنسي

اذا قلنا ان هذه الحرب بين النازية الالمانيـة والشعب الفرنسي لما تنته بعد ، رغم هدنة حزيران ١٩٤٠ بل انها على الضد تزداد ضراء وشدة ، بتأثير عوامل عديدة ، لعل من اهمها وأبلغها اثراً هذه الهدنة الخاسرة نفسها — ما احدثته ويخشى ان تحدثه من نتائج قريبة وبعيدة .. اذا قلنا ذلك لم يكن في قولنا شيء من التجاوز على الحقيقة او الوضع الراهن . ففرنسا ما زالت في صف الديمقراطيات تقاتل وتناضل وتبلي في الجهاد الحق احسن البلاء : في ميادين الحرب براً وبحراً وجواً الجيوش الفرنسية الحرة ، وفي الشعب الفرنسي الرازح بنير الطاغوت النازي صبر لا ينفد ، وعزيمة لا تفل ، وشجاعة لا تهن ، واستشهاد دائم دائم : كلما داويت جرحاً سال جرح ..

لقد حسبت النازية الالمانية وانصارها من دعاة التعاون وادعياء النظام انهم لا بد نائلون من صبر الشعب الفرنسي وشجاعته وعزيمته ووطنيته وايمانه بالمثل العليا التي تشرف

الانسان ، وانه يكفي لذلك ان يتذرعوا بمختلف اساليبهم من الخداع والوعود الكاذبة ، ومن الاجاعة والتقتيل والابادة ، ومن الارهاق والعسف والاضطهاد ، ومن التفرقة وبذر بذور الشقاق ، حتى يحملوا الشعب الفرنسي في النهاية على الخنوع والاستسلام واليأس . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة ان الشعب الفرنسي ازداد على ذاته انكماشاً وتقبضاً ، كقبضة اليد تتجمع منذرة بالضربة القاضية ، وكانت النتيجة ان الروح الفرنسي ازداد تصلباً وتوتراً ، كالقوس تشد وتشد كي ترمي الى « الخلاص » ولا تخطيء الهدف . فليست المرة الاولى يمتحن فيها الشعب الفرنسي بغارة العدو على ارضه مستبيحاً حماه المادي والمعنوي ، وبخيانة نفر من ابنائه يضحون من اجل منافعهم العاجلة سلامة الوطن وقيمه الباقية . لكن رد الفعل لم يتغير . فهنا — كما يصف الموقف شاهد عيان محايد — ضابط الماني يختفي اثره ، وهناك قنبلة تنفجر ، وهنالك خائن يسقط مضرجاً بدمه من رصاص فرنسي محب لوطنه ، محوط بعطف الملايين من الفرنسيين . وفي مناجم الفحم شمالي فرنسا سلسلة من الاضرابات تأتي بغتة ، فتشل الانتاج . حتى لكأنها في فرنسا من اقصاها الى اقصاها مؤامرة مرتجلة يشترك فيها الشعب الفرنسي طواعية ، وليس في المتآمرين من لا يعلم انه يعرض للتهلكة نفسه ونفوس ذويه .

ان الشعب الفرنسي الاعزل لا يعدم وسيلة يقول بها

. للطاغوت النازي واعوانه ، صارخاً بملء فيه : كلا ! هو يقولها في كل حين ، ولدى كل سانحة ، بكل ما يملك من وسائل . فاذا ما ذكر التاريخ اطوار هذه الحرب ، فلن يسعه ان يسقط من حساب النصر ، نصيب الشعب الفرنسي الذي جرد من سلاحه ، لكن لم يخرج من المعمعة .

الاحتكار ورأي ابن خلدون فيه

لا نكون مغالين اذا قلنا ان العلّامة ابن خلدون ، ذلك الحكيم الانسكلوبيذي العظيم ، لم يكد في « مقدمة » تاريخه المشهورة ، يدع شاردة او واردة من احوال العمران البشري ، وهو ما يسمونه « المجتمع » بلغة العصر ، الا احصاها ، ثم عرض لاسبابها ونتائجها القريبة والبعيدة ، بنظرة عجلى او بحث مفصل .

ومن الحق ان نسجل للناطقين بالضاد هذه الحقيقة الاولى وهي انهم يعدون ذلك الكتاب مفخرة من أجلّ مفاخرهم وابقاها على وجه الدهر . لكن لا بد من ان نسجل عليهم هذه الحقيقة الثانية وهي انهم قلما يطالعونه او يرجعون اليه . ولعل مقدمة ابن خلدون من الطرف الخالدة المتداولة « المبتذلة » التي يؤجل الاديب او المتأدب ، والعالم او المتعلم ، قراءتها الى اجل غير مسمى ، كأنما كتب له ايضاً ، الخلود مثلها . فحبذا لو كنا نفخر بها أقل قليلاً ، ونقرأها او نرجع اليها اكثر كثيراً ، اذن لكان الحساب أصح .

يقول احد المستشرقين الذين عنوا عناية خاصة بدراسة آراء

ابن خلدون في الاقتصاد السياسي او الاجتماعي مـا ترجمته :
« اذا كانت آراء العلّامة التونسي في كيان الجماعات المركب، ترفعه الى أعلى مراتب الفلاسفة والمؤرخين، فان مـا يعزوه من شأن كبير الى العمل والملاكة والاجرة، يجعله سلفاً واماماً لعلماء الاقتصاد في هـذا العصر .. وان اعظم مزية لمؤلفه القيم هو تعذر ربطه بطريقة او مذهب، وانه لا يصح حصره في دائرة محدودة ضيقة كالتي تستلزمها نظرية اجتماعية، او يقتضيها حزب سياسي . »

اذا كان لابن خلدون آراء في علم الاقتصاد جـديرة بان تجعله اماماً يهتدى بهديه، فهل تراه تكلم في « المقدمة » عن الأحتكار، وهو شغلنا الموجع منذ بدأت الحرب، وحديثنا الدائم هذه الايام ؟ لقد رجعت كعادتي الى « المقدمة » فاذا بعلامتنا الكبير لا يتكلم عن الاحتكار فحسب، بل يسميه باسمه، قال :

فصل في الاحتكار : ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الامصار، ان احتكار الزرع لتحين اوقات الغلاء مشؤم، وانه يعود — على فائدته — بالتلف والخسران - وسببه — والله اعلم — ان الناس، لحاجتهم الى الاقوات، مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به، وفي تعلق النفوس بمالها شر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً، ولعله الذي اعتبره الشارع في اخذ اموال الناس بالباطل . وهذا،

وان لم يكن مجاناً ، فالنفوس متعلقة به ، لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر ، فهو كالمكره ..)

الى ان يقول : (فلهذا يكون من عُرف بالاحتكار ، تجتمع القوى النفسانية على متابعته ، لما يأخذه من اموالهم ، فيفسد ربحه ، والله تعالى اعلم ..)

ثم يقول في موضع آخر بعد الكلام على التجارة والربح الناشيء عنها : (انما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه ، واضطرار الناس الى الاقوات بين الغني والفقير . والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران ، فيعم الرفق بذلك ، ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص ، والله الرزاق ذو القوة رب العرش العظيم ..)

فأولاً : نحب ان ننوه بهذه الكلمة الحصيفة العادلة ، مما قاله ابن خلدون في اذى الاحتكار ومعالجته : (يجب في الاقوات وما جرى مجراها من الضروريات ، ان يرجح جانب القوت — او العدل — على جانب التجارة — او الاثرة — في هذا الصنف الخاص — اي الرغيف ، على الاقل . وثانياً يجب ان نحمده تعالى على انه قام في ظهرانينا اخيراً ، رجل يرجح عنده جانب القوت على جانب التجارة ، وهذا الرجل هو معتمد فرنسا الحرة الذي أحدث — بضربه على ايدي المحتكرين — حدثاً في هذه البلاد لم يسبق له مثيل . هو يوم له ما بعده في هذه البلاد التي كادت حرية التجارة تكون فيها حرية الاجاعة . ولعل تلك الاشارة هي أنبل وأفضل وأعدل

اشارة تحركت بها يد في هذه البلاد منذ اجيال . فلقد طالما رجح « جانب التجارة » على « جانب القوت » في اغلب نواحي حياتنا .

وليس ابن خلدون من الذين يرسلون القول جزافاً او اعتباطاً . فهو منطقي الى اقصى حد ، وتفكيره علمي منطقي بقدر ما كان الاسلوب العلمي مألوفاً في عصره ، بل انه سبق بعد عصره عصوراً .. فابن خلدون يبني حكمه المبرم على هذا الربح الحرام الناشيء عن احتكار الزرع لتحين اوقات الغلاء ، على مبدأ أساسي في مذهبه الاجتماعي او الاقتصادي ، هو ان العمل وحده اصل الثروة او المال ، كما ان الثروة عمل مجتمع متراكم ، ولا يخالفه في ذلك من علماء الاقتصاد والاجتماع أقربهم منا عهداً وأحدثهم رأياً ومذهباً . ولهذا رأينا ابن خلدون يثبت ، فيما أثبته من حقائق ، ان الزيادة او الربح الفاحش الذي يصيبه المحتكر باحتكاره ، مما لا حق له فيه ، لانه اصابه مجاناً اي دون عمل مقابل . ثم يكاد يدخل هذا الربح في دائرة ما يعتبره الشرع الاسلامي الحنيف ، من قبيل « اخذ اموال الناس بالباطل » . ولا نخال ان المباديء التي صدرت عنها في اوروبة ، انظمة الضريبة على ارباح الحرب ، بعيدة عن هذا المبدأ الذي قرره العلامة ابن خلدون ، منذ نحو ستة قرون ، بل هذه جارتنا مصر سلكت ايضاً تلك السبيل وسنت مثل ذلك القانون ، فكانت خير قدوة لبلدان الشرق العربي كافة .

وانه لما يثلج الصدور ويبعث الامل في النفوس ، خلال

هذه الازمة الخانقة التي يعاني بلدنا من بلواها مـا يعاني ، ان نرى الجنرال كاترو ممثل فرنسا الحرة ، وقد بسط يده فوق القرون الستة ، ليصافح العـلّامة ابن خلدون المفكر المسلم الحر الذي قال : « يجب ان يرجح جانب القوت على جانب التجارة » .

الرحّالة

لقد اتى عليّ زمن — ومن لم يأت عليه مثل هذا الزمن ؟ — كنت مولعاً بكتب الرحلات التي يروي الرحالون فيها ما شاهدوه في الاقطار النائية ، من غرائب وعجائب . وكلما كانت الرحلة الى بلد سحيق ، بين اقوام وامم لا صلة لنا بهم منْ حيث طراز المعيشة واساوب العبادة ونمط التفكير ، كان شوقي الى قراءة الكتاب اعظم ، اذ امني النفس حينذاك بمعرفة ما لا اتصوره او يخطر لي ببال . والانسان ، كما لا يخفى ، ميال بفطرته الى الخوارق والاعاجيب ، كأنها دنياه الاصلية طرده العلم منها ، ضرباً بالسياط ورجماً بالحجارة ، فهو لا يفتأ يحن اليها ، ويتوق الى سكناها كرة ثانية .

ولعلّ المرء يحس ، حيناً بعد حين ، هذه الحاجة الى التغيير والتبديل ، وهذه الانفة او السأمة من البقاء على حال واحدة ، او في مكان واحد . بل يمكننا القول ان التنقل غريزة من غرائز البشر ، لكن هذه الغريزة ملجمة بلجام ، مقيدة بأغلال ، عند اكثرهم . واحسب ان كلًّا منا يأتي عليه

زمن يتمنى لو يترك البلد الذي نشأ فيه وعاش عمراً طويلا ، الى بلد آخر لا عهد له به من قبل ، مدفوعاً بتلك الغريزة القاهرة ، غريزة التنقل والتبديل . فاذا لم يفعل ، او لم يظفر بامنيته العزيزة ، فليس ذلك الا لان ظروفه الخاصة لم تهيء له الرحيل ، او لم تيسر له النقلة . وقد تظل هذه الغريزة كامنة في ضميره حتى يستوفي اجله — ولكل اجل كتاب — فيرحل الرحلة الابدية الكبرى التي لم يرجع منها احد .

وأحسب ان غواة هذا النوع من الكتب ، كتب الرحلات ، هم في الاغلب من الذين اشتدت في نفوسهم تلك الغريزة او رغبة التنقل ، ولم تمكنهم الحياة وضروراتها من اطاعة غريزتهم ، وكفاية رغبتهم . فهم يقنعون بالرحلات كما ترويها المؤلفات — يقنعون برحلات غيرهم .. وكأني بهم يرافقون اولئك الرحالين الحقيقيين في حلهم وترحالهم ، وفي قيامهم وقعودهم ، لكن على اجنحة الخيال ، ليس الا . ولعمري انها للذة او متعة لا بأس بها عند من يحرم اللذة الحقيقية . فالعامة الذين لم يغفلوا شيئاً في امثالهم ، يصفون المرق لمن فاته اللحم ، ونعم وصفة الطبيب هذه للمعودين .

وليس ما يمنع من الظن بان كتب التاريخ ككتب الرحلات ، من جهة ان تلك تنقلنا الى الازمنة الخالية ، كما تحملنا هذه الى الاقطار النائية . فاذا اخذ بعضنا في مطالعة كتاب يروي اخبار الامم والشعوب كانت مطالعته بمثابة رحلة ايضاً : هي رحلة في الزمان ، كما ان تلك رحلة في المكان ،

وفي كلتا الرحلتين كفاية لغريزة التنقل التي تضمرهـا النفس الانسانية ، ولا تظهر الا اذا واتتها الاقدار .

كذلك انا ، وكذلك انتم .

نحن من المولعين بكتب الرحلات وكتب التاريخ : نرحل كل يوم ، ولا نزال في موضعنا وعلى حالنا ، الى اقصى الامكنة وأبعد الازمنة ، ثم نرجع وقد علانا النفس بكفاية حاجة من حاجاتها الضرورية ، مع قلة النفقة والمشقة والمؤنة على السواء .

لكن ، ما رأيكم في ذلك الرحالة الهمام الذي عرفتـه فيمن عرفتهم من اصناف الناس ، ولا بد انكم تعرفونه هو بعينه ، او تعرفون على الاقل اشباهه ، وهم بحمد الله كثيرون ؟

هو رجل من لحم ودم ، تشتد فيه غريزة التنقل والرحيـل ، وتلح عليه الحاحاً لا سبيل معه الى المراوغة ، فيرى ان لا مناص من اجابة سؤلها ، وكفاية تلك الحاجة الملحـاح الـتي تملك عليه نفسه وليس تقنعها كتب التاريخ ، ولا كتب الرحلات . .

ماذا تراه يصنع ؟

ان ذلك الآدمي ، ببساطة لا حد لها ، يركب الترام . . يأخذه من فرن الشباك الى شوران . فهو عند كل محطة في بلد ، وبين المحطات الاقطار والامصار ، والامم والشعوب ، والعادات والازياء ، والحوادث والمغامرات ، والعجائب والمفاجآت ، يملأ عينيه واذنيه وقلبه وعقله من تلك المشاهد المتنوعة ، ثم يعود الى بيته — والعود احمد — مهنئاً نفسه بسلامة الوصول ، كالآيب من سفر بعيد .

هكذا يرحل رحالتنا المقدام، طاوياً المسافة طياً ..

اما رحلته في الزمان فهي اقرب تناولاً وأقل مؤنة، لكنها ليست دون تلك الرحلة متاعاً ولذة وتنوعاً واختلاف مظاهر . انه — وببساطة لا حد لها ايضاً — يجاس الى جدته العجوز، فيسألها ان «تسولف» له، اي ان تقص عليه اخبار الاولين . ومن هؤلاء الاولون ؟ هم جده وابوه، وجدته وامه، واخيراً هو نفسه في طفولته وصباه، كأن طفولته فجر التاريخ الانساني، وكأن حوادث صباه هي الاحداث العظام التي تشرق بها صحائف ذلك التاريخ .

والله، ما اسعد هذا الرحالة الهمام المقدام، بما يراه بين فرن الشباك وشوران — كدت اقول الآن : بين القطبين الشمالي والجنوبي ! . والله ما اهناه بما يسمعه من جدته العجوز ذلك التاريخ الحي، من اخبار آبائه الاقربين، واهله الادنين !

هاتان رحلتان، في الزمان والمكان، هما في متناول كل منا، لا مشقة ولا نفقة فيهما، وليس رحالتنا الهمام كما ترون، بسيطاً بهذا المقدار، ولا فكرته سخيفة الى الحد الذي نتصوره لاول وهلة .

اما اذا كنتم لا ترون في هاتين الرحلتين، الجغرافية والتاريخية، ما فيه الغناء، لانكم تطمحون الى ما وراء شوران، وتتوق نفوسكم الى ما قبل تاريخ الجدة العجوز، فانتم وشأنكم . عليكم اذن بكتب التاريخ، تاريخ الامم والشعوب الذي لا يفهم اكثره، ورحلات الرحالين الملأى بما لا يكاد يصدق من الغرائب والعجائب، لعلكم تجدون ثمة ما فيه الكفاية ..

الرحلة الجديدة

لم اكن أحسب وانا أتحدث اليكم ، عن ذلك الرحالة الهام الذي كان ، حيناً بعد حين ، يكفي حاجة نفسه الملحاح ، بل الحاجة الانسانية العامة الدائمة الى التنقل والرحيل ، والتغيير والتبديل ، بقراءة كتب الرحلات وكتب التاريخ ، فله تارة رحلة في الزمان ، وله تارة رحلة في المكان ، الى اقدم الازمنة واقصى الامكنة ، وهو يا عجبا ! ما يزال في موضعه وعلى حاله ، مع قلة الخطر والمؤنة .. لم أكن احسب اني سأعيد الكرة هنا ايضاً ، فاحدثكم عن اية رحلة خيالية ممتعة ، أو حقيقية رائعة ، وعن اي رحالة ، قعيدي « مجحام » او مغامر مقدام .

لكن ما العمل ، وللضرورة كما يقولون احكام لا ترد ، وفي النفس دوافع لا تغلب ؟ واعني بالضرورة الآن لذة إشراككم في اكتشاف وفق اليه احد أصدقائنا الالمعيين الفضلاء ، وليس يتوقف على هذا الاكتشاف نتيجة الحرب العظمى مباشرة ولا بواسطة ، من قريب او من بعيد ، بل

قد لا تترقف عليه نتيجة عملية لاي شأن من الشؤون الخسيسة او الرفيعة .. لكن فيه كما سترون ، كفاية لحاجة اخرى هي المعرفة او الفضول ، ليست دون سائر الحاجات قوة اغراء وشدة الحاح . ولعل ،رد هذه الحاجات جميعاً الى اصل واحد عريق في النفس الانسانية ، تستمد منه ، وتصدر عنه ، او هي صور ومظاهر مختلفة لحاجة اساسية واحدة .

لقد سمع ذلك الصديق حديثي عن « الرحالة » فأغري لوقته بقراءة رحلة ابن بطوطة المشهورة ، وبعد بضعة أيام أعاد الي الكتاب ، وعلى أحد فصوله اشارة بالقلم الرصاص ، وترك لي في البيت خبراً : أن إقرأ هذا الفصل ! .. وسنقرأه الان معاً ، اذا اذنتم .

قال ابن بطوطة من كلام يذكر فيه السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي ، أحد سلاطين الهند في القرن الثامن الهجري ، ما نصه : « ودخل علاء الدين دار الملك ، واستقام له الامر عشرين سنة . وكان يتفقد امور الرعية بنفسه ، ويسأل عن اسعارهم ، ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس ، في كل يوم ، برسم ذلك (أي للسؤال عن الاسعار) . ويذكر انه سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم ، فاخبره ان ذلك لكثرة المغرم على البقر (اي الضريبة ، بلغة العصر) . فأمر برفع ذلك (اي بالغاء الضريبة .) وامر — وهنا بيت القصيد — باحضار التجار ، واعطاهم الاموال ، وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم ، وبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم

اجرة على بيعها .. ففعلوا ذلك . وفعل مثل هذا في الاثواب التي يؤتى بها من دولة اباد (اي من الخارج ، باصطلاحنا اليوم .) وكان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن (اي مخازن الدولة) وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويذكر ان السعر ارتفع ذات مرة ، فامر ببيع الزرع بثمن عينه . فامتنع التجار من بيعه بذلك الثمن . فامر ان لا يبيع احد زرعاً غير زرع المخزن (اي مستودع الحكومة .) وباع للناس ستة أشهر . فخاف المحتكرون (وهنا ثاني ابيات القصيد) فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا ان يؤذن لهم في البيع ، فأذن لهم ، على ان يبيعوه باقل من القيمة الاولى التي امتنعوا من بيعه بها . »

هذا ما جاء في « رحلة ابن بطوطة » بنصه ، من ذكر التدابير الرشيدة التي قام بها السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي ، ملك دهلي وما يليها من اعمال الهند ، في القرن السابع او الثامن للهجرة ، اي منذ نحو ٦٠٠ سنة ، لمعالجة ازمة الغلاء ودفع أذى الاحتكار ، في زمنه . فلو قابلنا ذلك بما نشهده في بلادنا منذ دخلتها جيوش الحلفاء البريطانيين والفرنسيين الاحرار ، من التدابير العادلة الحكيمة ، لما رأينا عظيم فرق .. ويظهر ان الطرق التي يسلكها العدل لصلاح « الرعية » هي طرق واحدة لا تتبدل . قد تختلف باختلاف الازمنة والامكنة ، لكنها تختلف تفصيلاً لا جملة ، فتصبح بفضل علم الاقتصاد مثلا ، أقرب في زماننا الى حسن السياسة

والنظام ، منها في زمن ذلك السلطان الخلجي علاء الدين ، طيب الله ثراه .

لقد اجتاز ابن بطوطة في رحلته الفريدة ببيروت ، فلم يتفضل عليها باكثر من سطرين ، قال : (ثم سرنا الى مدينة بيروت ، وهي صغيرة حسنة الاسواق ، وجامعها بديع الحسن ، وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد .) هذا ، لا اكثر ولا اقل . انما في « الحديد » عوض .

يقول الشاعر بودلير : « ان شكل المدينة يتغير ، واأسفاه ! باسرع مما يتغير قلب الانسان . » وهو بيت من الشعر يصدق في بيروت . فهل تجد فينا شاعراً يأسف على تبدل ملامح المدينة ، كما اعرب الشاعر الفرنسي عن أسفه ؟

ان الشاعر يحيي بذكرياته . فاذا اندرست الامكنة التي نشأ فيها وقضى أيام بؤسه وايام نعيمه ، احس كأنما يمضي جزء منه ، لعله اعز اجزائه عنده ، واكرمها لديه .

كنت دائماً اتخيل ان لكل اسرة في مجموعها ، وجهاً معيناً معروفاً مألوفاً ؛ وان ملامح هذا الوجه وتقاطيعه هم افراد تلك الاسرة الذين أعرفهم . وكنت كلما رزئت الاسرة بموت احد ابنائها ، فمشيت في جنازته ، اقول لنفسي هذا وجه الاسرة الفلانية يتبدل اليوم قليلاً او كثيراً ، بفقد احد ملامحه البارزة او الضئيلة .

هكذا المدينة : كان لبيروت وجه نعرفها به ؛ وهو الوجه الذي الفه اهلها زمناً طويلا ، على انه غير الوجه الذي استأنس

بطلعته الشيخ ابن بطوطة رحمه الله .

ماذا كان يقول ابن بطوطة ، لو امتد به العمر وطال السفر، الى زمننا هذا ، ومدينتنا هذه ؟

كان يقول من فصل طويل يصف فيه بيروت وعمرانها ، ومنازلها وسكانها ، ما نصه ، مما يناسب المقام :

(.. وفي سنة الف وتسعماية واحدى واربعين مسيحية ، دخلت مدينة بيروت جيوش الحلفاء البريطانيين والفرنسيين الاحرار . وقد كان النازيون قاتلهم الله ، اخذوا يتسربون الى سوريا ولبنان زرافات ووحداناً ، كي يتخذوا من مطاراتها قواعد لمهاجمة فلسطين ومصر والعراق وغيرها من معاقل ذلك النظام الذي كانوا يسمونه « الديمقراطية » . وكان الاهلون في ضيق شديد ، وبؤس ما عليه من مزيد . فلما استقام الامر للحلفاء انصرفت القيادة العامة الى اتخاذ افضل التدابير لرفع الغلاء عن كاهل الرعية . فأمرت باحضار تجار القمح فحضروا ، فقالت لهم : « يجب ان تبيعوا القمح بسعر كذا . » فامتنع التجار جميعاً من بيعه بذلك الثمن البخس . ثم استدعتهم مرة ثانية وقالت لهم : « اني ابيع القمح الان بسعر كذا ، وهو اقل جداً من سعر السوق ، وفي شهر شباط ابيعه بسعر كذا وهو اقل ايضاً من السعر الاول ، وفي شهر نيسان ابيعه ايضاً بسعر كذا ، وهو ايضاً اقل مما سبق ، وهكذا .. » وكان الحلفاء يجلبون القمح من اوستراليا براً وبحراً ، لسيطرتهم على الطرق البرية والبحرية . فخاف التجار والمحتكرون فساد زرعهم

بالسوس ، فطفقوا يخرجون القمح من مخازنه ، ويبيعونه للناس بسعر السلطة . ومن التدابير الرشيدة التي اتخذتها الحكومة الوطنية ايضاً ، رحمة بالفقير ، وقد هالها ارتفاع سعر اللحم ، انها امرت باحضار التجار واعطتهم البقر والغنم وقالت لهم : « بيعوا بسعر كذا ، ويكون لكم اجرة على بيعه .. » وكل هذه التدابير قريبة مما ذكرناه في رحلتنا ، وشاهدناه في الهند منذ نحو ستمئة عام ، على زمن المغفور له السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي ، وتجده في موضعه من كتابنا « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » . لكن التدابير في هذا الزمن وفي هذه المدينة ، اكثر دقة واحكاماً مما نقلناه لك ، وذلك بفضل ما يسمونه « علم الاقتصاد السياسي » وهذا العلم هو كالسيارة والطيارة وغيرهما ، من عجائب العصر ..)

ذلك ما كان يقوله الرحالة الشيخ ابن بطوطة ، لو امتد به العمر وطال السفر ، الى زمننا وبلدنا ، والله تعالى اعلم .

كل شيء نسبي

(وسألت ان اكتب لك ..

.. علة الجهجاه في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقبيح الصدق في مواضع ، وفي الحاق الكذب بمرتبة الصدق ، وفي حط الصدق الى موضع الكذب ، وان الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكر مثالبه ، ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضاره ، وانهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما ، لما فرقوا بينهما هذا التفريق ، ولما رأوهما بهذه العيون ..

.. ولولا انك تجد هذه الابواب واكثر منها مصورة في كتابي الذي سمي « كتاب المسائل » لأتيت على كثير منها في هذا الكتاب .

الجاحظ : كتاب البخلاء .)



في هذه الدنيا ، كاد الخير والشر يكونان متلازمين متداخلين ، لا تدري اين ينتهي احدهما واين يبدأ الآخر .

وكذلك الصواب والخطأ ، والفضيلة والرذيلة ، وكل النقائض .
لا شيء مطلق الا القاعدة القائلة : « كل شيء هو نسبي في الوجود » . فهذه القاعدة الوحيدة التي يمكن القول انه لا يأتيها الباطل ولا يعتريها الشذوذ ولا يدحضها الواقع . وقد لا يكون الحق المطلق والخير المطلق والجمال المطلق ، التي تمدحت بها بعض مذاهب الفلسفة وأطنبت في وصفها ، وتعلق بها الكثرة من الخلق وتاقت نفوسهم اليها ، الا بدعاً مستحبة تواطأ على تكوينها في عالم المثل الاعلى ، الاحساس والفكر والمخيلة ، لكن لم يؤت احد معرفتها في عالم المادة ، في هذه الدنيا . ولعلهم لهذا يحيلوننا ، تعزية لنا ، على الآخرة ، وللآخرةُ خير وأبقى .

« كل شيء نسبي ! » آية ذهبية ، اذا تمكنت من افهامنا ، وأشربتها قلوبنا ، وسرنا في الحياة على مقتضاها ، فهي جديرة ان تمحو آية الحديد القائلة : « آمن بالحقيقة التي اؤمن انا بها والتي لا حقيقة غيرها ، او اقتلك بيدي . » فاذا لم تعفّ هذه الاية على آثار تلك ، كانت على الاقل ، كفيلة ان تفل من حدها ، وتكف من غلوائها . وقد يكون ايضاً من شأن هذه الاية السمحاء ، آية النسبية ، ان توفر على البشر كثيراً من الشرور والآلام التي يجنيها عليهم النظر في الامور من جهة واحدة ، واغفال الجهات الاخرى . ومن هنا ينشأ التعصب على اختلاف انواعه ، دينياً كان ام دنيوياً . ثم تأتي الاثرة ، فتوطد اركان التعصب ، وترفع بنيانه .. وليس

بين ذلك وبين ان يعصف الجنون بالافراد والجماعات ، الا خطى قليلة يخطونها بمثل لمح البصر ، وان النار لمن مستصغر الشرر .

احب ان اضرب مثلاً يقرب الى الاذهان ، في وقت معاً ، نسبية الاحكام الانسانية وتداخل الخير والشر ، او الفضيلة والرذيلة ، في اغلب شؤون الخلق وأعمالهم . لنأخذ « الصدق والكذب » ولنتساءل : هل يصح ان نعد الكذب دائماً بين الرذائل ، والصدق دائماً بين الفضائل ؟

لن اقول اني لم ار في الناس اكثر شيوعاً من الكذب ، حتى كأنه العملة الرائجة التي لا يستغنى عنها في كل المعاملات والعلاقات . فلو شاء امرؤ ان يحصي في يومه الاكاذيب التي يبذرها هنا وهناك ، سواء أبكلامه ام بصمته ، وسواء أبحركته ام بسكونه ، لراعه تبذيره واسرافه .

لا ، لن اقول ذلك ، كي لا اتهم بالشطط والمبالغة . لكن لا ننس ان ثمة ما يسمونه : « الكذب الحلال » ككذبة الطبيب على مريضه في بعض الاحوال . قال لي احد اصدقائي الاطباء منذ ايام : « ليس على الطبيب واجب واحد هو ان يشفي عليله . قد يكون من واجبه احياناً ، اذا يئس من شفاء العليل ، ان يساعده على الموت — على الذهاب من الدنيا ، كما ساعدته القابلة على المجيء اليها ، مطمئناً مموهاً . »

تصور الان طبيباً يقول لك بلهجة الواثق الذي تعوّد ان يهبط عليه الوحي : « استعد ! لقد قضي الامر . انك بعد اسبوع ، في رحمة الله . » ثم نبئني ما رأيك في محاسن

الصدق بعد هذا الاختبار الموجع ..

ذلك ، عدا ما يسمونه كذب اللياقة ، نعني الاكاذيب اللينة الناعمة التي يقتضي بها التمدن والتهذيب وحسن التربية . فانت ، كل يوم ، تبسم لمن تلعنه اذا غاب ، وتصغي لمن تتمنى له الخرس ، وتحيي من ترجو ان تمشي — الساعة ! في جنازته ، ليكون هذا آخر واجب من واجبات اللياقة والادب تقوم به نحوه . ولو علمنا رأي الناس فينا ، رأيهم الصادق الصدق كله لتوسلنا اليهم قائلين : « اكذبوا علينا ، بالله عليكم . اكذبوا ما استطعتم الى الكذب سبيلا . » ويوم يجمع البشر على ان لا يكذب احد احداً في حال من الاحوال ، فذلك والعياذ بالله ، يوم تحكم فيه البشرية على نفسها بالانقراض .

لندع الصدق والكذب ، بعد ان نقيس بهذا المقياس الصحيح ، سائر الفضائل والرذائل ، والحقائق والاباطيل . ولنأخذ مبدأ الحرية الذي جاهد البشر قرناً بعد قرن ، وجيلاً إثر جيل ، لاثباته في نظام تفكيرهم نظريا ، ولاقراره في دائرة علاقاتهم عمليا ، وما زالوا يجاهدون .

لطالما فاضت أرواح على شفرات السيوف ، وفي غيابات السجون ، وعلى أعواد المشانق ، في سبيل هذه الحرية التي تعتبر حقاً من حقوق الافراد والامم ، ويذهب بعضهم الى انه حق من حقوقهم المقدسة . فبالرغم من انه لا مجالَ للقداسة هنا ، كما انه لا موضع لها في سائر الشؤون الانسانية ، لا نجد بداً من القول ان مبدأ الحرية هذا هو رأس المباديء المستحبة التي لا

يسع من يحترم نفسه ، نعني الجوهر الاسمى فيه ، ان يعيش محروماً من ذلك الحق . ولعل الحرية من الضروريات التي لا تكون الحياة بدونها حقيقة بهذا الاسم ، او تكون شيئاً لا معنى له، ولا طائل تحته .

لكن أترون ، لو جاء باسم هذه الحرية العزيزة ، تجار البلد ، رافعين علمها الخافق وسط الازمة الخانقة ، ثم نادوا بصوت واحد يتهدج حماسة ، ويتقطع حمية : (الحرية ؟ نحن وانتم ، بتأييد من الشرائع الالهية والمدنية ، مجمعون على انها من الضروريات كالخبز والماء ، والنور والهواء .. بل الحياة بدونها — كما تقولون — شيء لا معنى له ، ولا طائل تحته . لكننا تجار ، ولا بد لنا ، بهذه الصفة ، من ان نضيف الى لفظة « الحرية » ذلك اللفظ الآخر الذي نُعرف نحن به ، اي « التجارة » . ولنقل دفعة واحدة : حرية التجارة ..)

فهل عرفتم على ظهر البسيطة ، ابسط من هذه الاضافة ؟

كل شيء نسبي في هذا الوجود ، حتى الحرية العزيزة ، ولا سيما حرية التجارة !

مسألتان: حسابية وجغرافية

منذ حطم الحساب عصا الجغرافيا على ظهري . .

لقد كانت في الصف ساعة مشهودة، لا بأس ان نؤرخ بها، في هذا المقال على الاقل، طوراً من اطوار حياتي المدرسية .

خرائط ملونة مزينة، منقطة مخططة، مرقشة مغبشة، فيها القارات الخمس ممثلة، جملة وتفصيلا : جبالها وسهولها، بحارها وانهارها، مدنها وقراها — تغطي على الجدران الاربعة في غرفة الدرس . وهناك في احدى الزوايا عصا بين الغليظة والنحيفة، كالحسناء التي وصفها الشاعر : «ما شانها قصر ولا طول» .

تلك هي عصا الجغرافيا التي حطمها الحساب على ظهري، دون شفقة . جاء بها معلمنا الصالح، ليهون عليه اعطاء الدروس التي اصبحت بعد ذلك اليوم، تدعى « الدروس العمليـة في الجغرافيا » ببركة العصا وحدها، على ما نرجح، اذ لم نعرف سبباً آخر لهذه التسمية الجديدة المغرية . كان معلم الجغرافيا، كجبار من جبابرة الاساطير، يحمل عصاه السحرية ويأخذ في التجوال، وسط الغرفة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، من

اوربة الى آسيا ، ومنها الى اوستراليا ، ثم يكر على افريقيا وامريكا ، باسرع من لمح البصر . . فكنت انظر اليه كالمشدوه، حيناً اتصوره راعياً ولا كالرعيـان ، يهش بعصاه على الدول المتزاحمة ، وحيناً احد لاعبي البليار يقذف الدول بالصولجان . وكانت تأتي علي هنيهات امسك قلبي بيدي ، مخافة ان تبدر من هذه « الجغرافيا العملية » الحدثة ، حركة خرقاء تطرح بيروتنا العزيزة ، جزيرة عائمة في المتوسط ، او واحة غريقة في الصحراء . فكنت ، في خاتمة كل درس ، اتنفس الصعداء ، حامداً الله على ان شيئاً من هـذا لم يكن ، كأنه كان في الامكان .

اما كيف حطم الحساب الوقور الرزين ، خارجاً من وقاره ورزانته ، عصا الجغرافيا على ظهري الضعيف ، فهي قصة اخرى كما يقولون في الحكايات التي لا تحكى . . لكن سأقصها انا عليكم ، كي تعلموا اني لم اتعمد كفراناً بالقاعدة القائلة : « اثنان واثنان تساوي اربعة » ولا بغيرها من القواعد المقررة في علم الحساب ، او الصحيحة عرفاً واصطلاحا . في ذلك اليوم المشهود ، كنت كأطوع التلاميذ ، شاخص البصر الى الحساب المتجسد في شخص استاذنا ، بينما هو يرسل في الهواء ، اعداده المفردة والمزدوجة ، فتتكاثر الى ما لا نهاية ، وتتلاشي دون حد ، جمعاً وضرباً وطرحاً وقسمة ، ونحن — يا عجبا ! لا ربحاً ربحنا ، ولا خسارة خسرنا . . لقد خيل لي حينئـذ اني ما زلت في حضرة ذلك البهلوان الماهر الذي لقيته في طريقي الى

المدرسة ، وقد شاء ان يأخذ نصيبه من الراحة ، بعد بضعة العاب شاقة عسيرة ، فطفق يخرج متلهياً ، من حلقومه العجيب ، ضروباً من الخرق والواناً من الخيطان لا تنفد ، كليلات المغني وآهاته ، او كبعض مخازن المحتكرين . ولا ادري لم خطر لبالي ان معلمنا الذي يستحضر الارقام ويغيبها بمثل تلك السرعة او السهولة البهلوانية ، لا بد مخرج لنا عما قليل ، ما لا يحصى من الدفاتر والاقلام والمحابر ، ثم هو جامعها مع ذاتها ، فضاربها بذاتها ، فقاسمها على ذاتها ، ليرينا من مخاريقه العجب العجاب ! وانتظرت ان اشاهد كوماً مرتبة من تلك الامتعة الضرورية ، وسط غرفة الدرس ، لا تلبث ان تحضر حتى تغيب .

ويظهر اني ابتسمت لهذا الخاطر ، رغم انه لم يكن غاية في الغرابة او في شيء من الخباثة ، لكن ابتسامتي على شحوبها ، اضاءت في عتمة الصف ، والا فعلام تجهمت سحنة المعلم بغتة ، فاستدعاني ؟ تقدمت نحوه مطمئناً ، مغموراً بجو من الغبطة لا اعرف تأويله ، كأني ومعلمي رفيقا نزهة مدرسية ، او كأنه هو البهلوان بعينه في ساحة المدينة ، يشير اليّ بالتحية لانه توسم في هيئتي ، دون سائر النظارة ، بعض سمات الخير وامارات الود .

قال المعلم وقد فغر فاه عن ابتسامة من النوع الآخر :

— انك تضحك يا معلمي .. فلنضحك معاً .. اجبني الان : كيف تجمع تفاحة وليمونتين وثلاث اجاصات واربعة اكواز من الرمان ؟

اقسم ، لم اسأله : ما جنس الرمان الذي يشتهيه او يعنيه ، أمن البرادي هو ام من اللفاني ؟ بل اجبت فوراً ، والابتسامة ، او ظلها فقط على وجهي :

— لا تتعب نفسك يا معلمي . كل هذه الطيبات واكثر منها تجده « مجموعاً » في دكان جارنا الفاكهاني . .

وفي لحظة واحدة ندمت على ذلك الجواب الفكاهي ، وشعرت بضربة عصا ثقيلة على ظهري ، وسمعت صوت المعلم المتهكم يرن في اذني :

— جارك الفاكهاني . . خذ هذه الدفعة على حسابه .

كل ذلك في لحظة واحدة . . وهكذا حطم الحساب منذ اربعين عاما ، عصا الجغرافيا ، على ظهري ، وانا ما فتأت اتحين الفرص كي اثأر لاضلاعي ، بل للجغرافيا الكسيرة ، من الحساب الجبار الذي يزعمون انه لا يرحم احداً ولا يعف عن شيء .

وهكذا جاءني اخيراً احدهم — من صبر ظفر — يسألني :

— ألم تزل ، بعد عامي الحرب هذين ، موقناً بانكسار المانيا في النتيجة ؟

اجبت ببساطة غير متكلفة : انا اليوم اشد ايمانا . .

قال : اذن فاليك مسألة حسابية صغيرة : « كيف تجمع انتصاراً وخامساً وعاشراً ، فيكون الحاصل عندك انكساراً ؟ »

قلت وقد ضربت كفاً بكف :

— تلك الفرصة التي يضن الدهر بمثلها . . ولا تسلني اية

فرصة ؟ فهو سر انا له حافظ ، وهو بي لاصق ، منذ اربعين سنة ، كطهارة الحمّال . . لهذا السر علاقة باناس لا تعرفهم : المعلم والبهلوان والفاكهاني . . اجل ، كعنوان حكاية من حكايات الف ليلة وليلة . . لكن مالنا ولهؤلاء ، فهم اليوم جميعاً في رحمة الله . . حقاً ان مسألتك الحسابية البسيطة تشكل عليّ ككل المسائل الحسابية . ولا اكتمك اني قلّ ما اتورط في هذه الامور بعد تلك الحادثة الموجعة . . كيف نجمع انتصاراً وثانياً وثالثاً الى آخره — ان لكل شيء نهاية — فيكون الحاصل عندنا ، بل عندهم اي الالمان ، انكسارا ؟ لكن لا بد لنا اولاً من التسليم بان هؤلاء الالمان امة عجيبة ، عندها وحدها سر هذه المسائل . . لا ، لن اقترح عليك مثلاً ، ان تلحق بعلامتهم اينشتين حيث يكون ، فتطرح عليه المسألة ، وهو مَن هو ، قلب العلوم الرياضية ، كما يقال ، عالياً على سافل . فلعله اثبت فيما اثبته من حقائق ، ان واحداً وواحداً يساويان اكثر او اقل من اثنين ، حسب الظروف ، انما لا يساويان اثنين مطلقاً . . لا ، ان ابعث بك الى ذلك العلامة النسبوي الذي قد يدخل في ذهنك انك ، وان عدت الي بجوابه ، لم تعد ولا يمكن ان تعود . . . لكن لنمش القهقرى معا ، في عالم الزمان ، بضع خطوات . لنستعد ذكرى الحرب العظمى التي كانت الاخيرة فاصبحت الاولى ، خطأ في الحساب ايضاً . . . هل تأذن لي بان أطرح عليك ذات المسألة ، فتجيبني كيف ان المانيا وفقت عهد ذاك ، التوفيق كله — ألم نقل ان

الالمان امة عجيبة ؟ — لان تجمع انتصاراً وخامساً وعاشراً ، فكان الحاصل عندها هزيمة مسجلة في صك الهدنة وفي معاهدة فرساي ؟ ماذا ترى الان يا صاحبي ؟ الا تزال مولعاً بالاحاجي الحسابية ؟ اما انا فقد زهدت فيها منذ عُهد اليّ بان اجمع تفاحة وليمونتين وثلاث اجاصات واربعة أكواز من الرمان ، فلم يرق لمعلمي في الحساب ان يكون حاصل الجمع عندي وعنده ، واجهة جارنا الفاكهاني ، وكانت وقعة البهلوان المشهورة .. لكن تعال يا صديقي اطرح عليك بدوري مسألة جغرافية ليست اقل بساطة من مسألتك الحسابية . علمٌ بعلم ، ولا يفل الحديد الا الحديد .. قل لي : هل يعقل ان تحارب المانيا ، وهي من اوربة على بركان ، الاتحاد السوفييتي — القارة السادسة ، والامبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس فكيف يحيط بها علمنا ؟ والولايات المتحدة الاميركية — العالم الجديد ، ثم يصح عندك في الحساب ، ان تنتصر في النتيجة ، سواء أأخذنا القضية طرحاً إم جمعاً ، ضرباً ام قسمة ؟

لست ادري ما كان من اثر هذا الحديث في ذهن صاحبنا المتشائم ، لكن ما أعلمه علم اليقين هو اني يومذاك قد حطمت امّ رأس الحساب بعصا الجغرافيا ..

?

سيأتي يوم ، وان غداً لناظره قريب ، يتساءل فيه الالمان أنفسهم عما يراد بهم في هذه المجزرة العمياء التي أضرم طاغيتهم وزبانيته شرارها ، وسعروا نارها . ترى ، هل يبلغون الغايات كلها او بعضها ، التي ما فتيء رجال الحكم واصحاب الدعوة يمنونهم بها ، ويحثونهم عليها ، ويدفعونهم نحوها ، كأنها في متناول أيديهم، أم يجدون في النتيجة عكسها، فينتهون حيث ابتدأوا؟

هذا السؤال واسئلة اخرى ناشئة عنه او ملازمة له ، لا بد ان يتطارحها الالمان . ولعل أشد تلك الاسئلة مضاضة وغضاضة ما يكون جوابه المحتوم هكذا : كلا ، لا يكفي ان ان يختار شعب ذاته كي يصبح بضرب من الخوارق « الشعب المختار » يفرض ارادته وعقيدته وطرقه في التفكير واساليبه في الحكم ومثله العليا او الدنيا ، على سائر شعوب الارض ، التي لا يطلب منها حينئذ الا السمع والطاعة والانقياد الاعمى ، لا سيما اذا لم يكن وراء تلك المبادىء والعقائد والدعايات ، غير اثرة قومية او عنصرية لا حد لها ، وغير حرص على جر

المغانم لا شبهة حوله . كلا ، لا يكفي أن يختار شعب ذاته كي يصبح الشعب المختار . فكيف وهؤلاء الجرمان عاشوا قروناً واجيالا لا هم لهم ، او لا مهمة ، الا ان يصلبوا العالم لافتداء أنفسهم ، مرة أو مرتين كل مئة عام ؟

منذ نحو عشر سنوات والمانيا في حالة حرب او تأهب للحرب — ليس بين الحالين كبير فرق — عانى الالمان خلالها أقصى ما يتصوره العقل البشري من ضروب العنت والحرمان ، سواء في الاقوات ام الحريات ، وفي الضروريات ام الكماليات . في تلك الفترة من الزمن استطاعت النازية ان تستثمر كل ما بالمانيا من موارد ، وان تسخر كل ما لدى الشعب الالماني من جهود ، تأهباً وتحفزاً لحرب خبوط باليد ، لبوط بالرجل ، هم لهذا يسمونها « حرباً جماعية » : يريدون ان المانيا من اقصاها الى اقصاها ، والامة الالمانية من اعلاها الى أدناها ، يجب ان تمسخ بين بكرة وضحاها ، ماكنة حربية بالغة من الضبط غايته ، ومن الاتقان نهايته . وكانت النتيجة ان طلعت النازية على العالم منذ عامين بذلك الجهاز الجهنمي الذي لم يسبق له في التاريخ مثيل ، سرعة اجتياح وشدة فتك ، حتى ظن الكثيرون من خفاف العقول وضعاف القلوب انه لا يمكن ان يعترضه معترض او يعوقه عائق ، عن الهدف الذي تقذف به نحوه ، الا وهو سيطرة النازية الجرمانية على العالم ، الى أجل غير مسمى — ذلك تقدير العزيز الحكيم !

ومن الطبيعي أن يكون الالمان أول المصدقين بهذه

الاسطورة التي وضعت لمصلحتهم ، وفي سبيل خدمتهم ! لكن اكبر الظن انهم لن يكونوا آخر المكذبين بها ، بعد بضع اختبارات موجعة يقاسونها ، فتحملهم على التساؤل ، باحرّ ما يمكن من القلق ، عما اذا كان ساستهم ورجال الحكم منهم لم يخطئوا الحساب في تقدير ما في العالم من قوى مادية ومعنوية لا تلبث حتى تثوب من الدهشة الاولى ، فتصمد متألبة متراصة لذلك الجهاز الحربي تقف حركته ، ثم تحطمه تحطيما .

وكان اول تلك الاختبارات الموجعة المؤيسة التي أهابت بالالمان ، اثر اجتياحهم اوربا الغربية ، الى التساؤل فالتفكير ، ثم الى الشك فالخيبة ، صمود الجزر البريطانية في وجه العدو الجبار الذي ليست غاراته السيكولوجية أقل دقة واتقاناً وعنفاً وشدة من تجهيزاته العسكرية ومحاولاته الحربية ، فتأهبُ الشعب الانكليزي لحرب طويلة الامد ، بعيدة الشقة ، يبذل فيها لاحراز النصر النهائي كل نفيس وغال من الانفس والاموال . وان في هذه الجرمانية المتوثبة المغيرة المدججة بالحديد المضرجة بالدم ، وفي تلك الجزيرة الوطيدة القائمة في عرض البحر الشمالي ، ليصدق قول الشاعر العربي :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأعيى قرنه الوعل

ذلك هو اول الاختبارات الموجعة التي عرفها الشعب الالماني خلال هذه الحرب ، فاخذت علامة الاستفهام ترتسم في جو المانيا ، بخط ناري بارز كالشهاب الساطع ، لا يمكن ان تعمى او تتعامى عنه الابصار ، مهما يبالغ في الايهام والتضليل ، والتمثيل

والتخييل .

ولعل آخر تلك الاختبارات وأحدثها عهداً استرجاع الروس مدينة روستوف وما يليها بمعارك صاعقة كان الجيش الالماني يحسب انه وحده أوتي امتيازها والتفرد بها . ولم يلبث الالمان حتى علموا بل علمتهم التجارب ، ان بلاغاتهم العسكرية كانت ولم تزل اشد « فتكاً » واعظم « قوة » من جيوشهم الجرارة وآلاتهم الجبارة .

يقول شكسبير على لسان شخص من اشخاص احدى قصصه التمثيلية ما معناه : (وددت لو كان لفلان — يعني عدوه الالد — ارواح، عدد شعرات رأسه، فأزهقها جميعاً واحدة بعد واحدة .) فهذا البطل القصصي الذي يتمنى لو يميت خصمه اكثر من مرة ، مبالغة في التعذيب والتنكيل ، وارواء الغليل ، لم يتجاوز دائرة التمني . اما البلاغات الالمانية فقد استطاعت ، دون حياء ، ان تبيد الجيش الروسي الذي استرجع بالامس روستوف ، وان تبيده أربع مرات معدودات . واكبر الظن انها ليست آخر ابادة يمنى بها الجيش المسكين المنتصر . حقاً ان هؤلاء الالمان لامة عجيبة .

لقد اخذت ترتسم في الجو الالماني ، من اقصاه الى اقصاه ، بخط ناري بارز ، علامة استفهام ضخمة معناها التساؤل والشك ، فالحيرة واليأس . وليس عجيباً ان يشهد العالم انهدام أعظم جهاز حربي عرفته الدنيا ، اذ ينقض عليه فجأة ذلك الاستفهام الناري كالصاعقة او كقضاء الله . فان التاريخ ، وهو المشهور بجودة المحافظة ، لن ينسى ان يعيد نفسه ، على الاقل هذه المرة ..

حجر الجريمة

يقول اناتول فرانس : « اذا حركت مبدأ وجدت تحته شيئاً ، فعلمت انه ليس بمبدأ » يعني : ليس حقيقاً بهذه التسمية الكريمة .

ما هو ذلك الشيء الذي يخشى الكاتب الفرنسي ، بل لا يخشى ان يجده تحت المبدأ اذا حركه ، ويكون من شأنه ان يفسده او ينقضه او يجعلنا ، على الاقل ، لا نسلم بانه من صنف المبادىء ؟

قرأت هذه الكلمة لاعوام خلت ، فأغريت زمناً بتحريك بعض المبادىء والعقائد والاراء التي كنت ، بحكم التربية والتلقين والعدوى والتقليد ، وغير ذلك من العوامل المباشرة او البعيدة ، الدائمة او الطارئة ، احسبها مكينة في نفسي ، مقبولة ومتحمساً لها فيما حولي . فكنت بالفعل اجد تحت اغلبها ما لا يرضي — اشياء كالتي يومىء اليها اناتول فرانس من طرف خفي . لا ادري ماذا افدت من هذه الرياضة العسيرة ، ولكني اعرف ما اضعته ، وهو كثير جداً بالنسبة

الى ما استبقيته . وكان يعزيني عن فقدها علمي بانها غير ذات بال : مبادئ، ليست بمبادئ ، وعقائد ليست جديرة بان تعتقد ، وآراء تتخبط بين العمى والضلال .

ولا اخال هذه الرياضة الخاسرة في الظاهر ، من الرياضات الشائعة في الخاصة ، فضلاً عن العامة ، لان الخلق الذين ينعمون النظر فيما يتقاضونه من عملة لتمييز صحيحها من زائفها ، قد يعوزهم الوقت الكافي لفحص المبادئ والعقائد والاراء والاحكام التي يقبضونها نقداً جيداً رائجا ، ثم يدخرونها رسمالا من الباقيات الصالحات . يعوزهم الوقت ، او الاجتهاد ، او الشجاعة .

لاول مرة قرأت كلمة اناتول فرانس ، تمثلت لي صورة من صور الصبي الطافية على لج الزمن بضرب من الاعاجيب . ثم كنت كلما عن لبالي في مختلف ظروف الحياة ، المعنى الموجع المؤيس الذي تضمنته تلك الكلمة ، لا افتأ أتمثل تلك الصورة بعينها . صورة واحدة لا تبديل لها جملة او تفصيلا . لمَ هذه الصورة دون غيرها ، وكأنها مهيأة مقدرة لهذا المعنى ؟ لعله احد الاتفاقات النادرة ، او سر من اسرار البحر الخضم الذي لا تكاد تتميز ، على سطحه ، وفي اغواره ، حدود ما بين الحفظ والنسيان .

هي صورة صبي يمرح ويلعب ، وكأنه في فرط مرحه ونشاطه يكتشف الدنيا ويعيد خلق الحياة . . ها هو يستوقفه في حوش المدرسة او البيت او عرصة مهجورة ، حجر وسط ليس بالكبير ولا بالصغير ، كتلك الحجارة لا يفترق عنها بشيء ،

قد ارتكز في الموضع الذي وطأه له مر الايام وكر الاحداث، فكأنه ثمة في دعة وراحة . وكما أغري اناتول فرانس بتحريك المبادىء ليرى ما تحتها ، كذلك يقف الصبي عند الحجر ، ثم يتقدم منه فيجهد لتحريكه بكل ما اوتيه من قوة وحماسة وعناد . لقد ازاح الصبي الحجر من مكانه ، فماذا وجد تحته ؟ ما يجده كل صبي قبله وبعده ، اجناساً من حشرات لا تسر منظراً ولا مخبراً ، اقل ما يقال فيها انها شنيعة ، كتلك الاشياء التي نجدها تحت بعض المبادىء اذا عملنا بنصيحة الكاتب الفرنسي . لكن الحجر لا يلبث في مكانه الجديد ان يرتاح ، اذ توطيء له الايام واحداث الطبيعة مستقراً ،يجيء فيه اشياءه ويعيش في دعة وامن ، الى ان يأتي صبي آخر مولع بنقل الحجارة من مواضعها ، ليلقي نظرة على ما تحتها .

في يوم من ايام النحس التي يكتب علينا ان يخفق فيها كل ما نحاوله ونحرص على انجاحه ، سواء من الهنات الخسيسة ام من المهمات الرفيعة ، زارني على غير موعد احدهم .. اعني احد المبادىء الجوالة ، المتقمصة بلحمها ودمها في هياكل البشر . فلم يكد يستقر بهذا الادمي المجلس ، وانا اتساءل عما يريده لي من خير او شر ، حتى سمعته يحدثني حديثاً طويلاً له حواش وله ذيول ، نصفه لا يهمني والنصف الاخر لا يرضيني . واذا بالحديث ينقلب خطبة من الخطب الجوامع ، فألتفت حولي ، فلا ارى لهذا الخطيب غيري جمهوراً . فكنت ابالغ في الانتباه، عسى ان اصبح وكأني اذان مصغية ، تكثيراً لعدد المستمعين .



وتمنيت لو اكون وحدي جمهوراً بالمعنى الصحيح ، بعضي يحبذ ويغلو في التحبيذ ، وبعضي يحتج ويشتد في الاحتجاج . وبين تصفيق الاستحسان وصفير الاستهجان ، فيما كنت افكر في حيلة لرفع الجلسة ، جاءتنا الخادم بالقهوة . فتناول الخطيب مصة ، وتلمظ برهة ، ثم انشد قائلاً وهو يمط وجهه عن اعرض ابتسامة شهدتها في حياتي :

في فمي مـاء وهــل ينطق من في فيه ماء ؟

ماذا كان موضوع تلك الخطبة الجسيمة ؟ لم يكن لهـا موضوع واحد ، بل كل المواضيع ، والا لم تكن جامعة . فهمت منها ان صاحبنا والديمقراطية على خـلاف يكاد ينقلب بينهما عداوة شخصية لا امل للصلح معها . وكانت الخطبـة في الواقع تدور على محور المبادىء المجردة والنظريات الخالصة التي لا تشوبها اية شائبة من المصالح الزمنية او المنافع الذاتية. كانت موعظة بليغة تحلق باجنحة من المثل العليا وكفى ..

اذ بصاحبنا يسألني بغتة : ألم يأتك الخبر ؟

اجبت : لا . — وتهيأت لسماع خطبة جديدة .

قال ببساطة لا حد لها : لقد ألغيت وظيفتي .. ترى ، هل ضاقت الديمقراطية على رحبها بعشرين ليرة كنت اتقاضاها ، وهي دون ما استحق ؟

قلت لنفسي على سبيل التعزية : وهذا حجر او مبدأ لم يكن بحاجة الى من يحركه . انه يتحرك بذاته .. لكن من انبأه اني عميل الديمقراطية في هذا البلد ، فيجرد عليها في

يبني المسالم الحقير ، ذلك الجيش الجرار من الشواهد العقلية والنقلية ، ثم يعززه بحجة لا تدفع ، من طراز الغاء الوظيفة ؟

اذا حركت مبدأ فوجدت تحته شيئاً كالاشياء القبيحة التي يجدها الصبيان تحت حجارتهم ، علمت انه ليس بمبدأ ، وان جميع الحجارة لا تخبيء كنوزاً .. الان ، بعد ان تصرم عهد الصبى ودرجت الشبيبة على اثره ، اتيح لي ايضاً ان اعرف قصة حجر آخر ليس دون تلك الحجارة شأناً . ولنسمه الان حجر رسكولنيكوف . هو بطل قصة دوستويفسكي « الجريمة والقصاص » .. حكي انه قتل امرأتين عجوزين وسلبهما حلى واموالا ، ثم خبأ سرقته تحت صخرة مهجورة وجدها اتفاقاً في حوش مهجور . لماذا قتل رسكولنيكوف وسرق ؟ لانه في ساعة من ساعات الشيطان آمن بنبوغه وتفوقه على عامة الناس ، وبأن له رسالة يجب ان يؤديها ، ومهمة لا بد من انجازها ، وكل ذلك بالطبع ، لصلاح المجتمع وخير البشرية . فلا بأس بان يتم المشروع رغم انف المجتمع والبشرية — المجتمع الاحمق والبشرية الضالة .

هل ترون اي فرق بين ان يعصف هذا الجنون ، جنون التعاظم ، في رأس فرد من الافراد ، فيبيح لنفسه القتل والسرقة ، وبين ان يستقر في ضمير امة من الامم ، فتجيز لنفسها الفتك والنهب ؟ لقد آمنت ايضاً الجرمانية بعبقريتها وبتفوقها على شعوب الارض كافة ، وأعلنت ان لها رسالة يجب ان تؤديها ومهمة لا بد من انجازها ، فلا جرم كانت تبدأ

اولا ، بتسليط الحديد والنار على الشعوب التي تريد خيرهـا وصلاحها في النهاية . ولا بأس بان تسلب وتنهب ، ثم تخبيء سرقتها تحت صخرة « النظام الجديد » الذي تمني العالم بتحقيقه، متى كفيت شهوات الفتح والغلبة والطمع والسيادة التي تتحرك في احشائها ، عصراً بعد عصر .

لكن ، ترى ، ما ذنب المجتمع اذا كان لا يريد ، بل لا يستطيع ان يعرف سوى الدم البريء حول تلك الصخرة في الحوش المهجور ، دم الاضاحي المهراق على مذبـح وثنيـة جديدة ؟

من الادب الى السياسة

لبضعة ايام خلت قرأت فصلاً في « اصلاح النقد » — النقد الادبي والفني — كتبه السيد لاسين رئيس دوائر النشر والاذاعة في المندوبية الفرنسية العامة واحد المبرزين في علم « الاستاطيقي » وفي النقد والتوجيه الفنيين . تشهد بذلك مؤلفاته القيمة عن مشاهير المصورين الفرنسيس امثال دوميه وتولوز — لوترك وتنتوره التي ترجمت عن اصلها الفرنسي الى الانكليزية والالمانية ، والمباحث الممتعة المنشورة في كبرى الصحف والمجلات الفنية . ويشهد ايضاً ذلك المؤلف « تقويم الفنون » الذي وضعه بالاشتراك مع اوجينيو دورس عضو الاكاديمية الاسبانية ، ومن فصوله « اصلاح النقد » هذا الذي نحن بصدده . وقد سبق للسيد لاسين ان قام بتنظيم قسم « الفن والعلم » في معرض باريس سنة ١٩٣٧ ، وانه كان معتمداً للحكومة الفرنسية في المعرض الدولي للفن الديني الذي اقيم في فيتوريا من اعمال اسبانيا . وساهم فيما عدا ذلك مع فريق من النقاد الفنيين ، في اعداد طائفة غير قليلة من المعارض الفنية التي نوه فيها بآثار الشباب من ارباب

الفنون . وكان آخر ما اضطلع به من المهام تدريسه عام ١٩٤٠ في معهد « الدروس الفرنسية العليـا » في بخارست فرع تاريخ الفن الفرنسي والمدنية الفرنسية ، وهنالك اخرج مباحثه عن تاريخ الفن في رومانيا .

ولا بد من تذكيركم منذ الان ، بان هذا الفصل في « اصلاح النقد » كتبه كاتبه منـذ سنة ١٩٣٧ أي قبل اعلان الحرب التي يغرق العالم اليوم في دمها ويصطلي بنارها . لكنه كتب الفصل وكأن الحرب كانت قائمة على ساقها ، قال : « ان هذا الحساب الذي يفرضه الضمير على ذاته لن يذهب باطلا ، بل هو ضروري حينما نكون ، كما نحن اليوم ، على وشك ان نخوض معركة طويلة طخياء ، لكن قد تطلع من ظلماتها صورة انسان الغد . ليس الفن من النوافل ، ولن يسعه ان يظل محلقاً فوق منازعاتنا . فلا نكتم انفسنا ان ما نجاهد لاجله ليس اسباب معيشتنا المادية فقط ، بل اسباب حياتنا الروحية ايضاً . وان خوفنا مغبة قوة غاشمة منطلقة من كل قيد لا يُسرُ من خوفنا طغياناً فكرياً يريدوننا على ان ننوء بعبئه . فلا طغيان في الواقع الا طغيان الفكر . وانه لم يأت علينا زمن كهذا الزمن يحتم علينا ان نجمع شعث قوانا ، وان نلقي نظراً صحيحاً على موقفنا وعلى مختلف السبل الممتدة امامنا ، ثم نختار سبيلا واحدة هي السبيل التي لا يضحى فيها من الذات الانسانية شيء ، حتى وان أكرهنا على ان نسلك وحدنا هذه السبيل ، في حرب جائرة » .

ذلك ما يقوله السيد لاسين في فصله عن « اصلاح النقد »

الذي كتب ونشر منذ سنة ١٩٣٧ . وهذه الفقرة التي اخترتها لكم هي عطفة الطريق ، وها هي تنقلنا من غير جهد ، من الادب والفن الى السياسة . ويظهر ان البشرية تجتاز في هذا الزمن ، مرحلة من مراحلها الحاسمة لا يصح ان يفرق فيها بين الفن والسياسة ، ولا بين المادة والروح ، ولا بين القيم على اختلاف انواعها . « فليس ما نجاهد لاجله — كما يقول السيد لاسين — اسباب معيشتنا المادية فقط ، بل اسباب حياتنا الروحية ايضاً . . » وبالدرجة الاولى . كأن البشرية خلال هذه الحرب الجماعية تتوق الى سلم جماعية . يجب ان نؤمن بان هذا الكون الذي نؤلف جزءاً منه ، افراداً وشعوباً ، اخذ يتمخض عن نظام جديد ، نظام يتمتع فيه الافراد والامم باكثر ما يمكن من الرفاه والحرية . ولا حاجة الى القول ان هذا النظام الجديد لن يكون النظام الهتلري ولا ما يماثله بوجه ما ، بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول : نرجو ان يكون النظام الذي تمني الديمقراطيات نفسها بتحقيقه ، مناقضاً ذلك النظام الجهنمي الذي يسول لهتلر جنون التعاظم انه فارضه على الامم جميعاً ، وان يناقضه تماماً — ذلك النظام الذي يسيطر فيه على مقدرات الانسانية من يسمونه فوهرراً ، وهو انسان من لحم ودم ، لكنه لا يسأل عما يفعل ، زعماً منه ان الوحي يأتيه من عل ، فكأنه ظل الله الممدود على الارض . ويلي هذا الفوهرر ، في سائر الامم والامصار ، فهاردة اخر ، من نتاج مصنع نازي واحد ، لكنها مفصلة كما تفصل الثياب الجاهزة ، على قياس كل شعب

وكل بلد — فهاررة صغاراً وكباراً ، عمالقة واقزاماً ..

قال الرئيس روزفلت في احدى خطبه الاخيرة : « لم يكن في العالم ولن يكون عنصر يصح ان يتسود على جميع العناصر الاخرى . ليس في العالم مكان لشعب يزعم لنفسه حق السيطرة على سائر الشعوب والاجناس ، لا لشيء سوى انه اعظم حجما واقوى جيشاً . فلكل امة مهما تكن صغيرة ، حق طبيعي في ان تتمتع باستقلالها حسبما تشاء » . وانه لعمر الحق عهد يأخذه على نفسه ، باسم امته وحكومته ، رئيس الديمقراطية الامريكية الكبرى ، نحو الشعوب الصغيرة التي ما كان ليصغر حقها في الاستقلال وفي الحياة الحرة ، لمجرد انها صغيرة حجما ، قليلة عدداً وعدة ، تلك الشعوب التي لا تدخل في حساب النازية الا طرحا ، أي اجاعة وابادة وتقتيلا ، لتفسح للنازي ما يسمونه مجالا حيوياً لهم ، وهو في الوقت نفسه مجال تهلكة لمن عداهم .

منذ الفوز الروسي العظيم في الشرق تنفس العالم الصعداء ، كأن الكابوس الجرماني الذي يضغط على صدره اخذ ينزاح عنه . ولقد تجلى الابتهاج العالمي بهذا النصر المبين في الخطبة البليغة التي القاها رئيس الفرنسيين الاحرار الجنرال ده غول منذ بضعة أشهر ، مبرهناً على سمو مبادئه وبُعد نظره في السياسة على السواء ، لا سيا في تنويهه بان هذا الحدث الخطير سيكون من شأنه ان يؤلف في المستقبل عامل توازن في العالم لا غنى للسلامة في العالم عنه .

يجب ان نؤمن بان الدنيا تتمخض عن نظام جديد ، لا

نازي ، يتمتع فيه الافراد والامم باكثر ما يمكن من الرفـاه.
والحرية .. هو مخاض شاق عسير تعاني فيه الانسانية اشد الآلام ،
وتتمرس باعظم الافـات . لكن لا بأس اذا « طلعت من
ظلماته – كما يقول السيد لاسين – صورة انسان الغد » .
صورة انسانية الغد ..

أقل ما يمكن من الكلام

لي صديق من الظرفاء يحمل الابتسامة في ثغره ، كما يحمل الفتى المتأنق وردة في صدره . هو من الذين يشكون في كل شيء ، ولا يبالون بشيء ، فلست تراه حانقاً او مغضباً . ان الحياة ، على حد قوله ، ينغصها الغضب والحنق ، فالافضل للمرء ان يقضي عمره راضياً او متكلفاً الرضى على الاقل ، لكن هنيء البال في كل حال . ويعتقد صديقنا الظريف ان السعادة تنقص اغلب الخلق لانهم لا يقدرون الاشياء قدرها ، ولا يحكمون على الامور حكماً صحيحاً ، فهم بين الافراط والتفريط .

لست أعني ان صديقي من المتفائلين الحمق الذين يعجبهم كل ما تقع انظارهم عليه او يصل الى اسماعهم . لا ، فهو على الضد ، قلما يعجبه امر من الامور ، او يثق باحد من الناس — نزيد انه لا يعجبه الاعجاب كله ، كما انه لا يثق الثقة جميعها . ان هو الا متفرج في مسرح الحياة ، متفرج يضحك في غير اسراف كلما رأى ما يضحك ، ويصفق دون مغالاة اذا

شهد ما يستفزه بالرغم منه . بيد انه كثيراً ما يضحك ، وفي القليل ما يصفق .

هذا الصديق الذي يحمل الابتسامة في ثغره ، يحمل أيضاً النكتة على اسلة لسانه . فلا يخلو مجلسنا ، اذا ضمه ، من نادرة طريفة او فكاهة لذيذة ، تكون تارة قريبة من الحقيقة ، وتارة بعيدة عنها . والتوفيق في النوادر ، كما لا يخفى ، هو من النوادر .

جاءني صديقي أمس اذ كنت اكتب .. لا ، لم اكن اكتب ، بل اهم بالكتابة ، يشهد بذلك ، القلم المتحفز بين اصابعي ، والورق الابله على منضدتي ، والسيكارة المشعلة امامي ، ولا سيما امارات الاهتمام والتفكير على وجهي . هي اداة الكتابة جاهزة مؤاتية ، فاي قوة تمنعني الان من ان اكتب ، ومن ان اخطب ؟

حياني صديقي باسماً كعادته ، ثم سألني :

— ما لك ؟ لعلك تفكر في موضوع حديث تصلح به الامة ويدر عليها الخيرات .. عجباً لكم ، معاشر الكتاب والخطباء ، تحسبون انكم بهذه الصحائف البيضاء التي تسودونها دون شفقة ستبيضون وجه المستقبل المكفهر . انتم مثل الديوك تعتقدون ، بل يسركم ان تعتقدوا ، بان الشمس لا تشرق على الكون بسنائها وبهائها ، اذا كنتم لا تصيحون كل صباح .. ألا فقل لي اذن : ما معنى صياحكم ايضاً كل مساء ؟

سحب صديقي هذه السحبة الطويلة العنيفة على غير انتظار

مني . فرفعت رأسي نحوه منذهلا ، لانه لم يعودني كهـذه اللهجة من قبل . وقلت لنفسي : « ما لصاحبنا يخرج اليوم من مزاجه المعتدل ؟ ما لظل الابتسامة الساخرة يغيب عن محياه ؟ أتراه أمسى من الذين يغضبون ويحنقون ويندبون ويلطمون ، لانهم يبالغون في الاهتمام بشؤون الحياة والدنيا اكثر مما ينبغي ، فلا يقدرون الاشياء قدرها الصحيح ، ولا يزنون الامور بميزانها العادل ؟ . أتراه ، دخل في غمـارنا ، نحن السواد الاعظم ، ليعدّ واحداً منا ، له ما لنا وعليه ما علينا ؟ »

وكأني به قد فطن الى ما يجول في خاطري ، فما لبث حتى أخذ بذراعي وقهقه ضاحكاً ، ثم قال :

— لا ، لا تخف سوءاً . أحببت ان اكلمك مرة بمثـل لهجتكم الفخمة الطنانة ، مجربـاً صوتي بالدوزنة .. ولكن قل لي : هذه الادويـة والعـلاجات التي لا يفتـأ مصلحوكم وواعظوكم يصفونها لادوائنا الاجتماعية والسياسيـة والاخلاقيـة والاقتصادية وهلم جرا .. هذه النصائح والمواعظ والاراء التي لا ينفك قادة الفكر منكم ينفحوننا بها من غير حساب ، عن منابر الخطابة ومناضد الكتابة .. هل تعلم بماذا تذكرني؟

قلت لنفسي : الان وصلنا .. جاء دور النكتة .

قال صديقي : اسمع . أعرف رجـلًا مشى ومشى حتى بلغ شاطيء النهر ، وليس يهمك ان تعلم اي نهر هو ، فلا تقطع عليّ الحديث .. وقف الرجل حائراً بائراً لا يـدري كيف يقطعه ، وهو لا يملك واسطة لاجتيازه .. أتدري ماذا

صنع ؟

اجبت : لا .

قال : كيف ؟ صنع ما يجب ان يصنعه اي رجل في مثل موقفه ..

قلت : فهمت . ألقى بنفسه في الماء واخذ يسبح .

قال : لا . هو اولا ، لا يجيد السباحة ، وهو ثانيا ، لا يحب التطويل .. اسمع . الامر أبسط من هذا . امسك بذاته من يديها ورجليها ، ثم قذف « بها » الى الشاطيء الاخر . وهناك .. هناك تابع سيره كأن لم يبق منه شيء على ذلك الشاطىء !

ولما رآني أحملق فيه ، سألني قائلا : هل تصدق حكاية هذا الرجل ؟

اجبت : لا ، بالطبع .

قال لي : اذن فانا لا اؤمن بالعلاجات والادوية والبرامج والخطط والمواعظ والارشادات التي تقترحونها انتم الكتاب والشعراء والوعاظ والخطباء ، على هذه الامة المسكينة ، كي تنجو — كما تزعمون — من ويلاتها وتخلص من نكباتها . ان الامة على شاطىء النهر ، وانتم لا تفتأون تحمسونها قائلين لها : « ايتها الامة العزيزة ، خذي نفسك من يديك ورجليك ، وشددي عزمك ، ثم اقذفي بها الى الشاطيء الآخر ، حيث السعادة والسلام والراحة والطمأنينة . » لكن الامة ليست بحاجة ماسة الى من ينصحها بان تقذف بنفسها ، فحبذا لو كانت

تقذف بكم انتم .

وقهقه صديقي ، وانصرف غير سامع ندائي .

كنت اقول له لو بقي : نحن نبني للامة قارباً تجتاز عليه النهر — قارب النجاة .. ونحن نجفف النهر فلا يرى غير اليابسة .. ونحن نشيد لها الجسور والمعابر .. نحن نصنع كيت وكيت » .. كنت اقول له اشياء جمة من هذا الطراز ، لا يحصيها العد . لكنه انصرف دون ان يستمع الي ، كأن ما يمكن ان أقوله ، بعد الحقيقة الموجعة التي جاءني بها ، غير ذي بال . ان هو الا كلام ، ولله ما اكثر الكلام !

والحق ان في النادرة الطريفة التي شاء صديقي ان يتحفني بها ، بينما كنت افكر فيما احدثكم عنه هذا المساء ، قاطعاً سلسلة تفكيري ، كثيراً من الصدق واصالة الرأي . لقد اصبحت الاغلبية في هذا البلد او تكاد ، تفكر وتضع البرامج ، وتنصح وتدبر الخطط ، لمن ؟ — للاقلية ، وهو اعجب العجب . فاذا امست الرأس المفكرة المدبرة المرشدة اضعاف اضعاف الجسد الذي يحملها ، فمن يعمل ، وينتصح ، وينفذ ، وينتج ؟

ليعمل كل منا في نطاق ما قُدر له وفرض عليه ، مفرغاً جهده مخلصاً وجهه ، وليقلل ما امكن من الكلام . وقديماً قالت حكمة الامم : « من كثر كلامه قل عمله . » فهل ترانا ، نريد ان نختص وحدنا باثبات هذه الحقيقة الخالدة ؟

رسالة لبنان الثقافية

احب اولاً ان افاجئكم باحدى الحقائق ، وابادر الى القول انها ليست من الحقائق الموجعة ولا المخجلة في شيء ، بل على الضد كما سترون .. بل لعل اكثركم ايضاً لن يفاجأ بها في كثير ولا قليل ، فما هو الا انني اوهمت نفسي بنفسي .

تلك الحقيقة ينبغي ان يعرفها — ما في المسألة شك — اللبناني الوسط كما يسمونه في التعابير الجديدة . ونعني باللبناني الوسط امرءاً يقيم في ظهرانينا طبعاً ، تربطنا به بضع روابط روحية ومادية ، طوعية وقهرية الى حد ما . فهذا المرء — وهنا يظهر فضله — يكلف نفسه ، حيناً بعد حين ، مؤونة التفكير في امته وبيئته ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، خارجاً من ذاته — الضيقة هي مهما يكن هو عظيما ، ويهمه ان تقوم في ذهنه بضعة آراء عامة تتجاوز دائرة حياته الى حياة المجموع . لكنه — وهذا شرط لا بد منه باية حال — يفكر تفكيراً سليماً ويقيس الامور بقياسها الصحيح . ان هذا اللبناني يكتنه الحقيقة التي وعدتكم اياها .. يدركها بداهة ، لاول

وهلة ، حتى لكأنه ، اذ نحن نتمثله ، اللبناني الامثل .

ولعمري ، أيحتاج لبنان — لبنان كما نعرفه قطعة من جغرافيا وفلذة من تاريخ — الى ان يتسلق ذروة من ذرى الزمن ، والى ان يضرب في مسافات الارض والسماء ، فيجيل انظاراً ثابتة او حائرة ، في ظلمة الماضي او غيب المستقبل ، في الآفاق القريبة او البعيدة .. ترى ، أيحتاج لبنان الى ذلك النصب الشديد ، المقعد المقيم ، كي ينتهي بـه الامر الى ان يقول في سره وعلى رؤس الاشهاد : « انا صغير ، جد صغير .. صغير جغرافياً ، وصغير تاريخياً ؟ » لقد رأيتم الآن ان لبنان لم يكن ، كي يقولها ، بحاجة حتى الى المقدمة الملطفة التي مهدنا بها لهذا الحديث . وسترون عما قليل ان تلك الكلمة ليست مما يقال قولا ، بل هي مما يهتف به هتافا .

فلبنان منذ كان ، لم يقف على ساحل هذا الابيض المتوسط ، بازاء مدنياته القديمة والحديثة ، كما يقف الصياد الذي دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة .. لا ، ولكنها قصة شعب من الشعوب ، ما كان صغر جغرافيته وتاريخه ليعوقه او يكفه او يمنعه عن ان يعطي العالم ، في عصر من عصور تمدينه، اداة التخاطب المثلى ، واساليب العبادة الفضلى ، وطرائق الفكر والعمل قويمة .. بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول : لعل صغره في رقعة الارض وفي زحمة التاريخ ، كان حافزاً ذلك الشعب ، دافعاً اياه بعزم لا يغلب ، الى الاخذ بضرب من ضروب العظمة او السمو او التوسع ، يكني به طموح

ذاته ويسد عوزها .

وهكذا رأينا لبنان يتبسط سفناً ومدناً ، ويتسامى آلهة وهيا كل ، ويتوسع بالحرف والفكر . ومن غاباته المقدسة كان يشيد معابده الذاهبة صعدا ، ويبني مراكبه الذاهبة بعيدا ، كأن له من ضيق ساحته ، وصغر حجمه ، عند المسافة ثأراً ، فلن يقر له قرار حتى يدرك ثأره ، مقرباً الابعاد ، جامعاً الاضداد ، واصلاً قطيعة المادة والروح ، على السواء .

ليست الثقافة في بلد من البلدان ، او رسالتها في شعب من الشعوب مما يرتجل ارتجالا ، ولا مما يُسن في ضجة المجالس والمجامع ، ولا مما تحدس به مخيلة شاعر او ينضح بـه ذهن حكيم ، ثم يفرض على الوجود فرضاً . فالحياة نفسها (والتاريخ الذي يحكي حكايتها) ليست سوى حوار لا ينتهي بين الانسان والطبيعة . ويندر ان تكون الكلمة الاخيرة في هذا الحوار لهذا الكائن من لحم ودم ... حوار لطيف تارة ، وتارة عنيف ، مضطرد او منعكس ، في صراحة او جمجمة .. كزقزقة العصفور وسقسقة الجدول ، كأصطفاق الموج وتقصف الرعد .. يهمس همس النسيم او يدوّي دويّ البركان .

لبنان ملتقى السبل المتفرقة ، ومعترك الامم المتنافسة ، ومزدحم الثقافات المتقاطعة . ما من قوة في الارض تستطيع ان تغلق ساحله الغربي ، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للابيض المتوسط ، من مدنيات وشعوب يعطيها ويأخذ عنها ، ثم تقذف به تلك القوة واحة غريقة في الصحراء . كذلك ما

من قوة في الارض تستطيع ان تسلخه عن هذا الشرق السامي الذي وصلته به ، منذ كان التاريخ بل قبل ان يكون ، وشائج دم ولغة ، وتقاليد واساطير ، وعبادات وثقافات ، ثم تقذف به تلك القوة جزيرة عائمة في الاوقيانوس . سيظل لبنان حيث هو وحيث كان ، من الطبيعة ومن التاريخ ، صلة وصل بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه . واذا صح ان ثمة مستقبلاً قريباً او بعيداً لن يعرف الاثرة القومية وما يلازمها من مظاهر الطمع والفتح والغلبة ، ولا التحريم الفكري وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف انواعه ، فقد كانت اذن ثقافة لبنان هي المثلى ، ورسالته في الدنيا هي الفضلى : ثقافة تمازج ، ورسالة تواصل .

ولعل اكرم ما يصدر لبنان من بضاعة ، ابناؤه في النواحي الاربع من الارض ، بناة المدن والسفن ، المخاطرون غير مغامرين ، المثقفون طبعاً وتطبعاً ، المحافظون في غير تزمت ، المجددون دون تعسف ، مخترعو الابجدية قديماً وحضنة العربية حديثاً ، ابناؤه السمر الميامين ، حملة رسالته الثقافية في العالم . .

كلمة الشباب

كلما أنشدت البيت المشهور الذي قاله بالانكليزية الشاعر كبلنغ : « الشرق شرق والغرب غرب ، وان يلتقي التوأمان » تعنّ لخاطري تلك النادرة العجيبة التي رواها الكاتب الامريكي مارك توين ، بالانكليزية ايضاً ، في خبر ذينك التوأمين الآخرين اللذين نسيتهما امهما في الحمام ، اذ كانا في الاسبوع الاول من العمر ، فاختنق احدهما فمات . وكان الذي بقي في قيد الحياة ، اذا قص القصة ، يهمس في اذن محدثه قائلا : « والان سأسر اليك بنبأ عظيم .. لكن حذار ان تعيده على مسمع احد من خلق الله ، فيعلم بذلك ابوانا ، فتكون الفجيعة الكبرى : ان ابوينا ما زالا يحسبان اني انا الذي مت مختنقاً في الحمام ، والحقيقة ان الذي قضى نحبه هو المرحوم اخي ، التوأم الآخر . »

وتقرب من هذه الفكاهة الانكلوسكسونية حكاية هبنقة نابغة العرب في الحمق . يروى ان هبنقة كان اذا نام مع شقيقه — والارجح انهما كانا توأمين ايضاً — جعل في عنقه

عقداً من ودع، كي لا يضيع عن ذاته، اثناء نومه وبعد يقظته . ففي صباح يوم من الايام، استيقظ ذلك الحذر البصير بالعواقب، فراعه ان اخاه قد انتزع العقد منه وجعله في عنقه. ولم يتمالك هبنقة من ايقاظ التوأم الاخر، وهو يقول: «يا اخي، انت انا . فمن انا ؟»

هكذا تبدو لنا مسألة الشرق والغرب، جغرافياً على الاقل .. فان الارض منذ استدارت، ثم جاء غاليلي فضربها برجله فدارت، اصبح شرقها وغربها لفظين لا طائل تحتهما، واليكم البرهان :

ان اليابان والصين والهند جميعاً من الشرق، كما هو معروف مشهور . اذن فعلام يسمي الصينيون الهند بلغتهم «سي يو» اي الغرب، ويسمون اليابان «جه بان» اي الشرق ؟ ذلك انهم يرون الشمس تشرق عليهم من ناحية اليابان، ثم تغرب في جهة الهند . وعلى هذا القياس يجب ان تكون امريكا غرباً بالنسبة الى الغرب الأوربي، وشرقاً بالنسبة الى الشرق، فيا للنسبية !. واذا كان القطر الواحد شرقاً وغرباً في وقت معاً، فكيف السبيل الى معرفة اي التوأمين مات مختنقاً في الحمام، او الى التفريق بين هبنقة واخيه الاحمق الآخر ؟

هذا اول الوجوه التي تسفر عنها المسألة الشرقية الغربية . فلننظر الان في وجهها الآخر: أهنالك روح غربي وروح شرقي يختلفان الاختلاف كله او بعضه ؟ اهنالك مدنية شرقية

ومدنية غربية لا تتفقان ابداً ، او لا تتفقان الا قليلا ؟ لا احب ان اعرض هنا لنظرية المدنيات التي تسير على خطوط متوازية فلا تلتقي ، او نظرية المدنيات التي تتفرع كالجداول من منبع واحد ، او نظرية المدنيات التي تصب كالانهر — لست اعلم اين — ولنقل : في بحر الظلمات ، فهذه الامور تكاد تدخل في غموض ما وراء الطبيعة . واكبر الظن ان هـذه المعضلة الانسانية هي كالمعضلة الجغرافية التي تركناها دون حل نهائي ، او اثبتنا انها ليست بمعضلة اصلا ، رغم ان فريقاً من اهـل الرأي واساطين السياسة في الغرب يتطارحونها ويجيبون عليهـا اجوبة مختلفة . فلو نحن تدبرنا المعالم الاساسيـة لتاريـخ المدنيات (او المدنية على اطلاقهـا) لكان ممـا يستدعي الانتباه ، اول وهلة ، ان الاغريق اقتبسوا كثيراً من عنـاصر مدنيتهم الزاهرة ، عن المصريين والفينيقيين والفرس والهنود القدماء ، اي عن الشرق ، باصطلاح الجغرافيا والتاريخ والسياسة جميعاً . لكن الاغريق سبقوا في كثير من الميادين ، اساتذتهم الشرقيين بمراحل . وفي القرون الوسطى اصبح العرب المشارقة ورثاء الاغريق المغاربة،فحملوا مشعل الثقافة والمدنية في اوربة المظلمة عصوراً ، وهكذا استمد الغرب من الشرق كرة اخـرى . كذلك إن يكن من اوضح مميزات الغرب او ملامحه البارزة انه يدين بالمسيحية ، فالمسيحية فرع من الشجرة الشرقية الساميّة التي انفرع عنها الاسلام ايضاً . فيمكن القول اذن ان هذه المدنية الغربية الشرقية ، كتلك الجغرافيا الشرقية الغربية ،

دائرة لا يمكن الخروج منها الا كما يستطاع الدخول في سم الخياط . ولا بأس ، فقد يكون لدينا مشاكل اشد الحاحاً واجدر بالروية ، من مشكلة الخروج من تلك الدائرة المسحورة : حسبنا ان لا ندخل فيها ، وكفى الله المؤمنين القتـال . لكن ليؤذن لي بكلمة واحدة في هذا السياق : ان تكن الارض تدور فاذا الشرق غرب والغرب شرق جغرافياً ، وان تكن المدنية تدور فاذا هي شرقية بالامس غربية اليوم تاريخياً . . ان تكن المسألة مسألة دوران ، فلا بد ان يأتي دورنا . . والا فما الخطأ منا ، بل من المنطق . .

ويظهر ان الغرب بحاجة ابداً الى مسألة شرقية يستغلها او يلهو بها . فقد حسبنا زمناً ان هذه المسألة ستنتهي متى قضى الرجل المريض نحبه ، او تماثل الى العافية . فاذا هي اطول عمراً من اي رجل مريض او صحيح ، فسميت اسماء جديدة ما انزل الله بها من سلطان . ثم افتن الغرب وتظرف ، فعرف مسألة شرقية من نوع خاص ، واليكم الحكاية : بعد الحرب العظمى الماضية ، ساور الاذهان في الغرب مثل القلق الذي يساور العامة من كل الامم في الازمات التاريخية ، اذ يؤمنون باقتراب الساعة . . فنادى بعض مفكريه ان المبادىء الغربية قد افلست في تلك — كدت اقول : في هذه الجزرة البشرية ، افلاساً لا اعتماد بعده ، وان اكثر القيم الاجتماعية والاخلاقية والفلسفية التي تقوم عليها المدنية هناك ، تضعضعت اركانها وتداعت جدرانها ، حتى ليخشى ان تمسي البشرية بلا مأوى ، فتبيت في العراء .

ولما نظروا حولهم يلتمسون طريق النجاة زعموا ان الشرق وحده بمبادئه المجردة وروحانيته السامية ، قادر على انقاذ ذلك العالم المهدد بالزوال ، جزاء وفاقاً على ماديته وجشعه واثانيته . ووجهوا وجههم نحو الشرق واديانه وفلسفاته وآدابه وفنونه ، ينقلونها ويدرسونها ، ويعارضونها ويقلدونها . لكن ما لبث فريق آخر ان صرخ بملء فيه : كلا ، ان هذه العناصر الشرقية خطر وبيل على الروح الغربي وعلى المدنية الغربية ، فيجب ان تغلق الابواب وتسد النوافذ دونها . واتهم الشرق بأنه مصدر لاشد الآراء والمذاهب — حتى الاجتماعية منها — تطرفاً ..

لقد عرفنا نحن ايضاً مسألة « غربية » من هذا الطراز ، يوم اخذ المتفيقهون والوعاظ ، وكل من ركب الله بين كتفيه رأساً ، فجر قلماً كما يجر الفارس رمحه ، يجادلون فيما يصح او لا يصح اقتباسه من عناصر المدنية الغربية . ولسنا نأخذ على هؤلاء واولئك الا غلوهم في تقدير أثر الرأي الفردي او الهوى في سير هذه الاحداث البعيدة الغور ، الواسعة المدى ، المشتبكة اصولا وفروعاً ، كتفاعل المدنيات والثقافات المختلفة .

لسنا نريد ان يفهم من كلامنا هذا اننا لا نعرف فرقاً بين ما يسمونه الروح الغربي والروح الشرقي ، او بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية . انما اردنا الاشارة الى خطر استعمال تلك الالفاظ على اطلاقها ، في معرض المفاضلة بين الروحين او بين المدنيتين ، وكذلك حينما يقصد الى بناء الاحكام والنتائج العملية على اساس غير راسخ من مدلول تلك الالفاظ . فلا

نكران أن ثمة فرقاً بين الغرب الاوربي وبلدان الشرق العربي مثلا . وهذا الفرق متعدد المصادر ، متنوع المظاهر ، حتى ليكاد يوهم حيناً انه فرق نوع لا فرق درجة ، او فرق أزل لا فرق زمن .

والواقع انه اختلاف درجة وزمن ليس غير . فلقد نام الشرق قروناً عديدة كما نام اهل الكهف ، وما ادري اي طيوف خيال كانت تجوس خلال الاحلام المشرقية . فلما استيقظ الشرق في القرن الماضي ، يقظة اهل الكهف ، راعه ما راعهم من ان الارض تبدلت ومَن عليها . واذا هو في عالم غير عالمه الاول العريق في قدمه وفي سكينته ، ذلك العالم الذي الفه زمناً مديداً ، والف جموده ، ونام على الثقة فيه ، الى حدّ ان الالفة اصبحت حالة بين النوم واليقظة الحالمة . ولما استيقظ الشرق ، رأى فوق رأسه اوربا — الجبار الشاكي السلاح من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ورأى اوربا — التاجر الذى يحمل في حقيبته السلع بانواعها ، ورأى اوربا — المعلم الذي يتقدم الجبار والتاجر ، او يرافقها خطوة خطوة ، رائداً ممهداً السبيل الى السلطان السياسي والاستغلال الاقتصادي .

وطبيعي ان يكون اول ما ادهش الشرق ، واعظم ما راعه ، بعد يقظته العجلى ، في هذا المظهر الغربي الجديد الذي تفتحت ابصاره عليه ، صفة القوة او القدرة التي تمتاز بها المدنية الحديثة ، تعني قدرة الانتاج الصناعي الصادر عن الآلة ، والآيل الى الالة ، وما يلازمه من وسائل النفوذ والغلبة والسلطان . لقد

راع الشرق هذا المظهر المادي وملك عليه لبه ومشاعره ، حتى كاد لا يرى غيره معنى من معاني الثقافة الغربية ، او غرضاً من اغراضها .

وسواء أكانت هذه المدنية التي نجدنا بازائهـا ، بل في مممعانها ، صرف مادية بعناصرها ومقوماتها واهدافها ، أم كانت مزيجاً متناسباً او غير متناسب من المادة والروح ، شأن سائر المدنيات التي لم يعرف التاريخ — على ما نرجح — واحدة منها يمكن الجزم بأنها كانت صرف روحانية . . فما هو في كلتـا الحالين موقفنا نحن ابناء الشرق العربي ، منها ؟

ولنجيب على هذا السؤال الاول نبادر الى طرح هذا السؤال الثاني وهو المقصود بالذات ، والجواب عليه جواب على السؤالين في وقت معاً : كيف نجتاز المراحل الكثيرة الشاسعة التي تفصل بين شرقنا والغرب — هذا الغرب الذي يمشي منذ قرون ، في شروط من الحياة غير شروطنا ، مشيته الحثيثة ، غير حاسب للخطى حسابا ، ولا يصح ان يُسأل توقفاً او تريثاً ، حتى يلحق به اخوه التوأم الآخر ؟

على الشباب العربي بالدرجة الاولى تطرح هذه المسألة وما عداها من المسائل التي تواجههـا بلادنا ، والتي لا مندوحة عن الاجابة عليها . ولا خلاف في ان على الشباب المثقف واجب حث السير ومضاعفة الجهد للنهوض بنفسه . لكن عليه واجباً آخر ليس دون الواجب الاول خطورة وصعوبة هو رفع مستوى الجماهير بحيث لا تبعد الشقة بين الشباب المهدي الهادي وبين السواد الاعظم

من الامة ، حرصاً على التوازن الثقافي الاجتماعي الذي به يستكمل المجتمع السليم مزاياه ، والمدنية الصحيحة مقوماتها .

وليست مهمة الشباب في هذه الناحية من حياتنا الاجتماعية ، بهينة ولا ميسورة . فهنالك مصاعب كثيرة تعترض سبيله . لكن من للمهمة العظمى اذا لم يضطلع الشباب المثقف بها ، وينهض باعبائها ؟ فالشباب في كل عصر ومصر هو العنصر التبدلي التقدمي .

ان الكلمة اليوم للشباب ، والكلمة هي العمل .

◆

الحركة الادبية في لبنان ؟

حقاً انها لمفاجأة لا ادري بم انعتها . ليكون رأي يجب ان تكون حركة ، وانا لم اقرأ في « المتنبي » منذ بضعة اشهر الا مرتين ، احداهما للتثبت من شطر كنت بنيت عليه موضوع حديث في الراديو ، ولم يكن الادب موضوعه . ولعل بيت المتنبي في الحديث السياسي ضرب من الحنين المخاتل . أليس هذا من علامات الوقت ؟

انني اليوم سياسي متطوع ، كما كنت من قبل اديباً غير « مسلكي » او ممتهن . فاذا عدت ، في مستقبل عسى ان يكون قريباً ، الى الادب — والعود احمد — فاظن اني قد افدت من هذه الحرب — والا لم أفد شيئاً — امرين : اولهما اني تعودت ، بل ارجو على الاقل ان اكون قد تعودت ان « اهجر » ذاتي مدات طويلة . وثانيهما اني اصبحت بباب مدرسة لا هم لي فيها الا ان اتعلم كيف افكر تفكيراً صحيحاً .

ولكن قل لي : كيف يكون قد تعود الخروج من ذاته

ودخل مدرسة التفكير الصحيح ، امرؤ تسأله عن الحركة الادبية في لبنان ، فيكون هذا جوابه ؟ يظهر اني مـــا زلت مبتلى بعاهة الشذوذ في الرأي ، توكيداً للذات في عالم تفكير غير صحيح او مستقيم .. فاذا كانت ممارسة هذه الحرب وما تثيره من مسائل حيوية لا تشفيني من تلك العلة ، فلييـــأس مني الرفاق ..

◆

كلمة نشرتها جريدة « الصباح »
الدمشقية مع اجوبة بعض الكتاب
الذين سألتهم رأياً في « الحركة
الادبية في لبنان »



تم طبع هذا الكتاب في مطابع دار الاحد ببيروت يوم
الثلثاء الرابع عشر من شهر تموز عام الف وتسعماية
واثني واربعين — ٣٠٠٠ نسخـة عـلى
ورق صحفي و ٢٢ نسخة على ورق
برشمان مرقمة من ١ الى ٢٢
وثلاث نسخ ممتازة على
ورق بوفان مرقمة
الف وبـاء
وجيم

